

دعوة الحق

كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

التنمية والبيئة

دراسة مقارنة

بقلم :

دكتور شوقي أحمد دنيا

قسم الاقتصاد الإسلامي
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

السنة الثالثة عشرة

جمادى الأولى ١٤١٤ هـ - العدد ١٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

- ٦٧- د. شوقي دنيا، دور الدولة في التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي، بحث مقدم لندوة التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي، عمان، مؤسسة آل البيت ١٤١١.
- ٦٨- د. يوسف القرضاوي، فقه الزكاة، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ٦٩- W Lipton M. Why Poor People stay Poor? London: Temple smith, 1977.
- ٧٠- الكاساني، بدائع الصنائع، نشر زكريا يوسف. القاهرة.
- ٧١- الشريف الرضي، نهج البلاغة، بيروت: دار المعرفة.
- ٧٢- ن. شارما ود. روي، ادارة غابات العالم، مجلة التمويل والتنمية، يونيه ١٩٩٢ م.
- ٧٣- ك. كليفر وغ. شراير، السكان والزراعة والبيئة في افريقيا، مجلة التمويل والتنمية، يونيه ١٩٩٢ م.
- ٧٤- الصاوي، حاشية الصاوي على الشرح الصغير، مكتبة الحلبي.
- ٧٥- محمد باقر الصدر، اقتصادنا، بيروت: دار الفكر.
- ٧٦- W Rubin S. I. & Graham T. R., Environment and Trade, N. Jersey, Allaheld Osman & Co. Pulishers, 1982.
- ٧٧- بيتر يمونين، السياسات التجارية والبيئة، مجلة التمويل والتنمية، يونيه ١٩٩٢ م.
- ٧٨- ابن ماجه، سنن ابن ماجه.
- ٧٩- النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، المطبعة

مقدمة

لعله من نافلة القول أن نشير إلى أن قضية التنمية تحتل مركز الصدارة بين القضايا الاقتصادية إن على ساحة الدول المتقدمة بالمحافظة عليها أو على ساحة الدول المتخلفة بانجازها .

ولسنا في حاجة إلى التذكير بأن الاهتمامات حول هذه القضية جد متشعبة ومتطورة ولعل مما يلاحظ المتهمون أن الجانب البيئي في التنمية أخذ في السنوات الأخيرة يولي عناية خاصة على كل المستويات ، سواء في ذلك المستوى الوطني والمستوى الاقليمي والمستوى الدولي . ونظرة في تقرير اللجنة العالمية للبيئة «مستقبلنا المشترك»^(١) تؤكد صدق هذه المقولة ، ثم ما تم أخيراً من عقد مؤتمر عالمي للبيئة «قمة الأرض»^(٢) .

ومع هذا الزخم الهائل من البحوث والدراسات فإن القاريء العربي بوجه خاص والقاريء المسلم بوجه عام لا يجد ما يشفي الغلة فيما هو متداول من كتابات باللغة العربية ، ولا سيما ما كان منها من منظور الاقتصاد الإسلامي^(٣) ، رغم ما لهذا الموضوع من أهمية من جهة وما للإسلام من عناية خاصة واهتمام زائد به من جهة أخرى .

(١) ترجم هذا التقرير ضمن سلسلة عالم المعرفة ، رقم (١٤٢) في أكتوبر ١٩٨٩ بعد اعداده بعامين ترجمة محمد كامل عارف سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة . الكويت .

(٢) عقد هذا المؤتمر عام ١٩٩٢ في مدينة ريو دي جانيرو في البرازيل .

(٣) اللهم إلا ماورد في كتاب الإسلام والاقتصاد للدكتور عبدالحادي النجار ، سلسلة عالم المعرفة (٦٣) . المجلس الوطني للثقافة . الكويت .

العربي .

٤٠- الغزالي، احياء علوم الدين، بيروت : دار المعرفة .

٤١- د. محمد صابر، البيئة الطبيعية كمادة دراسية، حلقة (الإنسان- البيئة- التنمية) القاهرة: الهيئة العامة للمكتبات .

٤٢- جون راندال، تكوين العقل الحديث، ترجمة د. جورج طعمة، بيروت : دار الثقافة .

٤٣- د. شوقي دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، القاهرة: دار الفكر العربي .

٤٤- د. فاروق الدسوقي، استخلاف الإنسان في الأرض، بيروت: المكتب الإسلامي .

٤٥- ج سوليفان، العلم في مواجهة المادية، ترجمة د. عماد خليل، بيروت: مؤسسة الرسالة .

٤٦- جون د. شيلينخ، تأملات في الديون والبيئة، مجلة التمويل والتنمية، يونيه ٩٩٢ .

٤٧- مورلايه، صناعة الجوع، ترجمة أحمد احسان، عالم المعرفة (٦٤) .

٤٨- تويني، مختصر التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، لجنة التأليف والترجمة .

٤٩- د. محمد عمر شيرا، نحو نظام قعدي عادل، ترجمة سيد عساكر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي .

Senec I.I. & Toussing M. K. Environmental Eco--٥٠ nomics, Englewood Cliffs, N. Jersey, 1979.

Todaro M. P. The Theory of Economic Develop- ٥١

ولذا فهو في حاجة إلى مزيد من الوعي البيئي ، ومن الوعي العميق بما هنالك من علاقات بين البيئة والتخلف ، وبما هنالك من روابط إيجابية وسلبية بين كل من البيئة والتنمية حتى تمكن من تدعيم الروابط الإيجابية والاستفادة المثلى منها ، واضعاف الروابط السلبية إن لم يكن إزالتها^(١). إن الأمر متوقف في النهاية كما يؤكد الخبراء على نوعية التنمية المنشودة ونمطها ، وضرورة أن تكون مغايرة لنوعية التنمية التي أنجزها الغرب والتي قامت على أساس إهلاك البيئة واستنزافها .

من هنا كانت أهمية مثل هذا البحث المتواضع الذي أخذ على كاهله مهمة إلقاء بعض الأضواء على موقف الإسلام من هذا الموضوع ، وعلى طبيعة علاقة التنمية بمفهومها الإسلامي بالبيئة ، كما أنه يستعرض بقدر من العجالة موقف الفكر الوضعي من هذا الموضوع خاصة منه الفكر الاقتصادي ، بهدف التعرف على مابه من فعاليات وثغرات ، وإلى أي مدى يتفق أو يختلف عن موقف الاقتصاد الإسلامي .

والهدف الأخير لهذا البحث قد يتمثل في تقديم ما يراه من موقف إسلامي حيال معضلة انجاز التنمية مع حماية البيئة ، ومدى كفاءته وفاعليته في هذا الشأن .

في ضوء ذلك كله نرانا مطالبين بأن يتناول البحث المشكلة البيئية من جوانبها المختلفة المتمثلة في : مصطلحاتها ، وعلاقة الإنسان بها ، وجوانب اعتداء الإنسان عليها ، وعوامل هذا الاعتداء ، وآثاره ، وطرق وأساليب حماية البيئة . كل ذلك من منظور إسلامي ، مع التركيز الخاص على الأبعاد الاقتصادية والانمائية . كما يتضح من الخطوة التالية .

(١) تقرير التنمية لعام ٩٢ ص ١٤ وما بعدها .

es, London: Edward Arnold Ltd, 1982.

- ١٤- د. محمد عوض الله، الإنسان والثروات المعدنية، عالم المعرفة (٣٣).
- ١٥- د. أحمد اسلام، التلوث مشكلة العصر، عالم المعرفة (١٥٢).
- ١٦- أبوحيان النوصيري، البحر المحيط، بيروت: دار المعرفة.
- ١٧- الرازي، التفسير الكبير، طهران: دار الكتب العلمية.
- ١٨- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية.
- ١٩- البقاعي، نظم الدرر، دار المعارف العثمانية. الهند.
- ٢٠- النحاس. معاني القرآن، نشر جامعة أم القرى. مكة المكرمة.
- ٢١- فرانكلين برل، الجوع أقصر طريق إلى يوم القيامة، ترجمة حسني عايش، بيروت: دار القلم.
- ٢٢- موريس غورنييه، العالم الثالث، ثلاثة أرباع العالم، ترجمة سليم قلسور، بيروت: المؤسسة العربية للنشر.
- ٢٣- د. شوقي دنيا، تمويل التنمية، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ٢٤- د. حسن نجم وآخرون، الإنسان والبيئة، الكويت: دار البحوث العلمية.
- ٢٥- رينيه دوبو، إنسانية الإنسان، ترجمة د. ميثل صبحي الطويل، بيروت، مؤسسة الرسالة.
- ٢٦- كافين رايلي، الغرب والعالم، ترجمة د. عبدالوهاب

خطة البحث

مقدمة

١- مصطلحات ومفاهيم :

- ١ / ١ - البيئة .
- ١ / ٢ - النظام البيئي .
- ١ / ٣ - الاعتداء على البيئة والافساد في الأرض .
- ١ / ٤ - الاسراف .

٢- علاقة الإنسان بالبيئة :

- ٢ / ١ - علاقة غير المسلم بالبيئة .
- ٢ / ٢ - علاقة المسلم بالبيئة .

٣- جوانب الاعتداء على البيئة والافساد في الأرض:

- ٣ / ١ - التلوث .
- ٣ / ٢ - الاستنزاف .
- ٣ / ٣ - التعطيل .

٤- عوامل الاعتداء على البيئة مع التركيز القوي على العامل الاقتصادي :

- ٤ / ١ - العامل العقدي والثقافي .
- ٤ / ٢ - العامل الفكري والتكنولوجي .
- ٤ / ٣ - العامل الاقتصادي .

٥- آثار الاعتداء على البيئة والافساد في الأرض:

- ٥ / ١ - الآثار الاقتصادية .
- ٥ / ٢ - الآثار غير الاقتصادية .

١- مصطلحات ومفاهيم

١/١- البيئة (Environment) :

لفظة وردت في معاجم اللغة بهذه الصيغة وبصيغ أخرى ، كما وردت مشتقاتها في القرآن الكريم قال تعالى ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق﴾^(٢) وفي الحديث الشريف : «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وروى أنه عليه السلام كان يتبوأ لبوله كما يتبوأ لمنزله . والعرب تقول هو بيئة سوء ، أي بحالة سوء كما يقولون إنه لحسن البيئة . ولهذا المادة معان متعددة منها الموافقة والالتزام والتعادل والتهيؤ والتمكن والاستواء والمنزل من الأرض والحالة^(٣) .

ومعنى ذلك ان هذا اللفظ يطلق على المكان أو المحيط أو الوضع المهيأ الصالح الموافق ، كما يطلق على الشيء الملازم ، حيث لا فكاك بين الإنسان وبيئته . وكذا الوضع غير الصالح وغير الموافق .

ومع قلة ورود هذه المادة في القرآن الكريم فإن ذلك لا يعني على الإطلاق عدم احتفال الإسلام بها حيث قد تواردت بكثرة أكثر من أن تحصى كلمة الأرض شاملة السطح وما عليه وما تحته ، كذلك لفظة

(١) سورة الأعراف الآية : ٧٤ .

(٢) سورة يونس الآية ٩٣ .

(٣) الراغب الأصفهاني ، المفردات ، بيروت : دار المعرفة ص ٦٩ ، الزبيدي تاج العروس ، الكويت : ص ١٥٢ ، الجوهري ، الصحاح بدون ذكر ناشر ، تحقيق أحمد عطار ، ص ٣٧ ج١ ، فارس ، معجم مقاييس اللغة ، القاهرة : مطبعة الحلبي ، ص ١١٣ ج١ .

التنمية والبيئة واثبات أنها معاً يمكن ان يتعاضدا ويتكاملا ، ثم الاهتمام بنوعية التنمية وسياساتها وليس مجرد تنمية ، بحيث تنجز في ظل محافظة وحماية للبيئة ، ثم القناعة الكاملة بأنه دون نوعية جيدة من البيئة لن تقوم تنمية ، وإذا قامت فلن تستمر ، ونفس الحال لا حماية فعالة للبيئة دون إنجاز للتنمية وقهر للتخلف الاقتصادي .

وقد رأينا أن للإسلام ، سواء من خلال القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو أقوال العلماء موقفه الواضح حيال هذه القضية ، إنه يؤسس الفرد والمجتمع على عقيدة التوحيد والإيمان بخالق الكون إيماناً فعلاً يقوم على احترام كل مافي الكون واستخدامه الاستخدام الرشيد ، دون ما تعطيل أو تدمير ، كذلك فهو يحذر الإنسان من مغبة إفساد الأرض ، ويحول بينه وبين ذلك من خلال ما يوجهه إليه من أنماط للتنمية تقوم على حسن التعامل مع البيئة ، وكذلك من خلال ما يسنه من تشريعات وعقوبات كلها تقف في وجه الإنسان الذي يريد أن يفسد في الأرض .

وقد رأينا أن مواجهة الإسلام للعدوان على البيئة أو بعبارة أخرى الحل الإسلامي لحماية البيئة يقوم على حزمة متكاملة من العناصر لو طبقتها الدول الإسلامية المعاصرة التطبيق الصحيح فإنها ستتغلب على ماتواجهه من تعثر للتنمية وتدهور للبيئة .

وأخيراً فقد رأينا أن الكثير من الحلول الوضعية لا يعارضها الإسلام سواء فيما يتعلق بتعديل نمط التنمية أو فيما يتعلق بحسن التعامل مع البيئة ومواجهة من يحاول الاعتداء عليها .

والأمر الذي ركز عليه الإسلام بقوة لا تقل عن تركيزه على حماية

الناحية الواقعية سواء من حيث المؤلفات أو من حيث السلوكيات والتصرفات هو التركيز على المحيط الطبيعي والجنوح نحوه وعدم الاهتمام بالاعتداءات البشرية على المحيط الاجتماعي، فلم نجد كتابات تذكر ولا مواجهات عملية حيال التلوث الفكري، والتلوث الخلقي والتلوث الاجتماعي والثقافي، ولا حيال تدمير تلك الجوانب واستنزافها، مع ان آثار الاعتداء عليها لا يقل خطورة عن آثار الاعتداء على البيئة الطبيعية.

والمفهوم الإسلامي للبيئة لا يختلف عن هذا المفهوم المعاصر الشامل لها. ومعالجة الإسلام للقضية البيئية لم تنجح ناحية العناصر الطبيعية فيها كما حدث في الأنظمة الوضعية المعاصرة، وأما أولها كلها بجناحيها، الطبيعي والاجتماعي رعايته واهتمامه. وربما بدا للبعض ان تركيز الإسلام على البيئة الاجتماعية هو أقوى وأشد من تركيزه على البيئة الطبيعية، ولو وافقنا هذا البعض على مرئيته تلك فإن الحكمة في ذلك قد ترجع إلى علم الإسلام بجسامة المخاطر المترتبة على اعتداءات الإنسان على هذا الجانب، وفي الوقت نفسه فإن اهتمام الإنسان بهذا الجانب قد لا يكون على المستوى المطلوب - كما هو واقع الآن - ربما لخفاء بعض الآثار المترتبة وعدم مشاهدتها ومعايشتها بصورة مباشرة كما هو الحال عند الاعتداء على الجانب الطبيعي حيث يشاهد على الفور ويعايش تردي الأوضاع المتمثلة في تلوث الهواء والماء مثلاً.

ومع ذلك فإن النظرة الفاحصة في موقف الإسلام من البيئة تكشف لنا أنه يعالج البيئة بجناحيها على حد سواء دون اغفال الجانب أو تحيز لآخر. وسوف يبرهن البحث تباعاً على هذه المقولة.

يسهل أكثر فأكثر كلما اتسعت رقعة الأراضي من جهة وتعاون أكثر من جماعة أو دولة فيما بينهم من جهة أخرى ، والمشكلات البيئية في كثير من مصادرها ومظاهرها وآثارها هي مشكلات دولية أو على الأقل إقليمية .

الإسلام واجه هذه القضية مواجهة عملية حيث ينظر للمسلمين جميعاً على أنهم أمة واحدة ولأراضيهم على أنها دار واحدة ، فالإسلام لا يعرف إلا أمة الإسلام ودار الإسلام ، مع الأخذ في الحسبان ماعليه الدول الإسلامية الآن من استقلالية وسيادة ، والإسلام يحترم ذلك طالما تم وفق التصور الإسلامي الكبير للأمة الإسلامية الواحدة . انه يعترف بهذا التنوع والتجزؤ كما يعترف في الوقت ذاته بأن ذلك كله داخل اطار كبير وداخل حدود واسعة هي حدود أمة الإسلام أو العالم الإسلامي .

نرى ذلك في الجهاد وفي النصرة وفي التكافل والتعاضد وفي العلاقات الاقتصادية وفي غير ذلك ، فالخطاب في كل تلك المجالات يتجه أساساً إلى المسلمين .

ومن هذا المنطلق يمكن للعالم الإسلامي أن يتعامل بكفاءة وبسهولة مع مشكلات البيئة والتنمية ، وذلك من خلال توفير أكبر قدر ممكن من التوازن بين متطلبات كل منهما ، عكس ما لو تحملت كل دولة بمفردها كل عبء حماية البيئة وانجاز التنمية ، ففي ذلك من العسر والمشقة مافيه بالنسبة لغالبية الدول عامة والدول الإسلامية خاصة^(١) .

(١) محبوب الحق ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨ ومابعدها ، مورييس غورنييه ، مرجع سابق ، ص ٤٩ ومابعدها .

البيئة القوية الصحيحة السليمة ، وبحدوث الاعتداءات تبدأ البيئة تفقد مقومات صلاحيتها مما يعني تدهور البيئة أو اجهادها ، وتزداد حالتها سوءاً كلما تزايدت الاعتداءات عليها ، إلى ان تصبح بيئة فاسدة ، حيث تفقد كل مقومات صلاحيتها ، ومن المعروف لدى علماء البيئة أن سلوكيات البيئة الطبيعية محكومة بقوانين وسنن منتظمة ، بينما سلوكيات الإنسان باعتباره أحد عناصر النظام البيئي متغيرة متبدلة . ومن ثم يعتبر الإنسان في نظر علماء البيئة هو المسؤول الأول والأخير عن أي خلل أو اضطراب أو عطب يحدث في البيئة . وقد سبق أن بين الإسلام كل هذه المسائل التي توصل إليها علماء البيئة . فنجد القرآن الكريم يشير في أكثر من آية إلى صلاحية الأرض . أي بعبارة فنية صلاحية البيئة ، كما يشير إلى توازن النظام البيئي ، فكل شيء في الأرض موزون ومقدر تقديراً حكيماً ، يقول تعالى : ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(١) ، ويشير كذلك إلى ان الإنسان قد يسلك مسلكاً يعمل على إفساد الأرض ، أي تدهور البيئة ، كما يشير إلى أنه رغم صلاحية الأرض ورغم ما فيها من مقومات عالية الكفاءة أنها قابلة للإفساد والتدهور إذا ماشاع وانتشر اعتداء الإنسان على جوانبها المختلفة الطبيعية وغير الطبيعية .

فنقرأ قول الله تعالى : ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾^(٢) نلاحظ في الآية الجريمة ثلاثة أبعاد أساسية في موضوعنا ، أولاً قوله تعالى (بعد إصلاحها) نص صريح على أن الأرض من حيث الأصل مستكملة

(١) سورة الحجر، الآيات رقم : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، وانظر في تفسيرها الزمخشري ، الكشف ، حيث يقول «وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان» .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٦ .

خلال تشريع بعض المبادئ والسياسات ، وأهمها كون المشروع الخاص محترماً لكنه محاط بقدر واضح من الضوابط ، وكون المشروع العام مراقباً ومسؤولاً من جهة ، وغير متسع وامتدّد من جهة أخرى ، وأخيراً إمكانية فرض رسوم أو أثمان على معظم الخدمات العامة بهدف ترشيد استخدامها من جهة وتوفير التمويل اللازم من جهة أخرى ، وفي ضوء هذه المسائل الكلية الكبرى ، للدولة بل عليها أن تتخذ مآثره من أساليب وإجراءات تحقق أكبر قدر ممكن من المصلحة العامة .

٨- إقامة نظام عقابي رادع : مهما يكن الأمر ، ومهما جندت العناصر والعوامل المختلفة للعمل على حماية البيئة ، فسوف نجد من يعتدي عليها ، وسوف نجد من النوازع ما يدفع إلى ذلك . واذن فنحن في حاجة إلى تواجد نظام عقابي رادع ، بحيث يوجع المعتدي ويزجر غيره عن مثل ممارساته ، نظام يعم الجميع ، ويخضع له الكل ، يستوي في ذلك المشروع الخاص والمشروع العام ، ويستوي في ذلك الفرد العادي وذو الجاه والنفوذ ، بل في النهاية ينصاع له الحاكم والمحكوم .

ومن الملاحظ أن العقوبات المعاصرة في معظمها غير كافية ولا تحقق عنصر الزجر والردع ولذلك تجرّأ الكثيرون على ممارسة الاعتداءات البيئية . قل لي بربك : ما هي العقوبات المعاصرة لمن يلقي بمخلفاته وفضلاته في الطرق والساحات والمياه؟ ولمن يسرف في استخدام المياه والطاقة؟ ولمن يهمل في رعاية أرضه ومزروعاته وحيواناته؟ لكننا في الإسلام نجد الأمر على غير هذا النحو ، فهناك العقوبات المالية وغيرها التي من حق الدولة بل من واجبها توقيعهما على كل من يسلك هذه المسالك وأمثالها ، بل إننا لنجد تصعيداً كبيراً وقوياً في هذا الصدد حيث

المقصود بها ما يقصد بلفظة البيئة فإن معنى ذلك أن النهي ينصب عن افساد البيئة وان افساد أي جزء منها هو إفساد لبقية أجزائها لما بينها من الترابط والتأثير المتبادل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يمكن ان يفهم من هذا التعبير المعجز شيوع الفساد وانسياحه وانتشاره في شتى بقاع الأرض وعدم وقوفه عند المنطقة التي وقع فيها فحسب .

وقد توصل العلماء أخيراً إلى قناعة كاملة بأن المشكلات البيئية لا تعرف الحدود والحواجز وأنه ما من شيء أقدر على اختراق الحدود منها . وخير مثال على ذلك تلوث الماء وتلوث الهواء^(١) كما يمكن أن يفهم منه المزيد من التنفير والذم لعملية الإفساد حيث إنه لا ينصرف إلى شيء بعيد عن الإنسان أو غير مهم له، وإنما ينصرف إلى ما لا غنى للإنسان عنه إنه الأرض التي جعل الله تعالى للإنسان فيها مستقراً ومتاعاً، ومنها خلق وإليها يعود ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ ومن التعبيرات الشائعة في أدبيات البيئة المعاصرة تعبير ﴿أمنّا الأرض﴾، ومما يثير الاهتمام والاعجاب أن علماء التفسير القدامى رحمهم الله قد تواصلوا في فهم للآية إلى تلك المعانى^(٢) و(ثالثاً) قوله تعالى ﴿ولا تفسدوا﴾ نجد النهي الصريح عن الافساد، كما نلاحظ ان آيات أخرى عديدة تنهى وتحذر من هذا السلوك المدمر، ومعنى ذلك ان الإنسان لديه من الإرادة والمقدرة ما يحدث الفساد في الأرض، ومن ثم حذر من ذلك بصيغ شتى منها النهي الصريح ومنها عدم محبة الله تعالى لهذا السلوك . يقول تعالى :

(١) د. أحمد اسلام، مرجع سابق، ص ١٦ وما بعدها، اللجنة العالمية، مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص ٣١. ولزيد من المعرفة يراجع تقرير التنمية في العالم ١٩٩٢ الفصل الثامن .
(٢) أبوحيان، مرجع سابق، ج ١ ص ٦٥، البقاعي، نظم الدرر، الهند، دار المعارف العشمانية، ج ١، ص ٤١٠، ابن عاشور، مرجع سابق، ج ٨، ص ١٧٤ .

الوحدات المنتشرة ومتابعة ذلك في ظل هذين المبدئين ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفروض الكفاية إضافة إلى جهاز الحسبة لا يمثل مشكلة أو تحدياً أمام المجتمع الإسلامي في إدارة البيئة والسهر على حمايتها ، ولو تدبرنا جيداً هذا الحديث الشريف لأدركنا كم هو مدى اهتمام الإسلام بحماية البيئة وإيجاده الآليات العملية لتحقيق ذلك . يقول ﷺ : ﴿ مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قدم استهموها على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها فكان من بالأسفل كلما أراد الماء صعد إلى الأعلى ، فقالوا لو أنا خرقنا في موضعنا هذا خرقاً - يحصلون منه على الماء دون مشقة - فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

هذا الحديث الصحيح الذي رواه البخاري يشع بدلالاته الصريحة والضمنية القوية في موضعنا هذا ، ألم نسمع كثيراً ونقرأ كثيراً عن أننا في قارب واحد وعن أن ما يحدث على أية بقعة من الأرض يؤثر لا محالة على بقية البقع تماماً مثلما يحدث للقارب أو السفينة .

الأمر في حاجة ملحة إلى الأخذ على أيدي العابثين بالبيئة - السفينة - وإلا فاهلاك للجميع والأخذ على أيديهم مسؤولية الجميع لأنه من باب إزالة المنكر والعمل على عدم وقوعه . .

٧- الوعي الكافي بأهمية مراعاة كل من التنمية والبيئة على حد سواء : ومن ثم كانت نظرة الإسلام نظرة متوازنة ، فلم يحاب أياً منهما على حساب الأخرى ، وكان منطلقه في هذا الصدد ضرورة تخير أهداف وسياسات وأدوات للتنمية بحيث لا تمثل عدواناً على البيئة ، كذلك اتخاذ سياسات بيئية غير متنافية مع متطلبات هذا النمط من التنمية .

كسبت أيدي الناس أي ماعملت من الشر عقوبة لهم على فعلهم»^(١). نلاحظ أن الامام البقاعي قد فهم من الآية أن الفساد يعني النقص في جميع ماينفع الخلق ومثل لذلك بالقحط والخوف وقلة الصيد ونحو ذلك . ولا أظن أن آثار الاعتداء على البيئة كما نعيشها وكما يتحدث عنها المختصون تتجاوز ذلك . ولقد أوضح أن ماكسبت أيدي الناس معناه ماعملت من شر، والشر أبوابه عديدة ومجالاته لا حصر لها، فالاسراف شر، والاضرار بالغير شر، واتلاف المال شر، والبغي والطغيان شر، والعبث شر، والجري وراء التكاثر لغير ماهدف صحيح شر، والذي نحب أن نوكد عليه أن الفساد قد فهم على أنه النقص في كل ماينفع الإنسان . وحيث ان التلوث يفقد الشيء صلاحيته ونفعه وينقص من القدر النافع منه، وكذلك الاستنزاف، وكذلك التعطيل - كما سنرى لاحقاً- إذن كل تلك الاعتداءات تندرج تحت مصطلح «الإفساد في الأرض» ولنستمع لمفسر آخر يوضح لنا مفهوم الافساد، يقول الامام الرازي: «النهي عن الافساد يدخل فيه المنع عن إفساد النفوس بالقتل وغيره، وإفساد الأموال بالسرقة والنهب والغش وغيرها، وإفساد الأديان وإفساد الأنساب وافساد العقول . وذلك لأن المصالح المعتبرة في الدنيا هي هذه الخمسة . فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ منع من إدخال ماهية الإفساد في الوجود، والمنع من ادخال الماهية في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه»^(٢) نلاحظ أنه صرح بأن كل مايدخل تحت هذا المصطلح منهي عنه . ومعروف أن الإفساد لغة هو

(١) البقاعي، مرجع سابق، ج ١٥ ص ١٠٤، قارن بالنحاس، معاني القرآن، نشر جامعة أم القرى، ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٢) الرازي، مرجع سابق، ج ١٣ ص ١٣٣ .

قد يقال : ما علاقة هذا بالمحافظة على البيئة؟ والرد على ذلك ببساطة شديدة أن طاعة الله تعالى عامة شاملة . نعم الإثتار بأوامره والانتهاء عن منهاته ، ومن ذلك أوامره بحسن معاملة البيئة والنهي عن العدوان عليها .

٦- التعامل الفعال مع قضية المسؤولية والادارة عن حماية البيئة : يلاحظ المتبعون لهذه المسألة أن الفكر الوضعي يعتبر مشكلة الادارة في عملية حماية البيئة من أهم وأخطر المشكلات ، وأن النجاح فيها يتوقف عليه انجاز الكثير من المهام ، ثم انه يعتبرها من التحديات الكبيرة التي ليس من السهل التغلب عليها ، فهناك ملايين الوحدات المفسدة للبيئة داخل كل مجتمع فكيف يمكن متابعة ذلك والحيلولة دون وقوعه؟^(١) ، ومهما يكن من أمر فإن الفكر المعاصر يعتبر «حماية البيئة» من أهم المهام العامة التي تقع على كاهل الدولة ، بمعنى أن توفير «نوعية جيدة من البيئة» يعتبر أحد أهم المجالات التي يجب على الدولة النهوض بها^(٢) .

والملاحظ أن الإسلام والفكر الإسلامي قد اهتم بهذه القضية اهتماماً متزايداً مقدماً لها من الأساليب العملية ما يكفل القيام بها ، وهناك الكثير والكثير من المؤصلات لهذه المقولة نكتفي منها بذكر مايلي : في صدر الإسلام قام الرسول ﷺ بتخطيط المدينة وسار على نهجه الخلفاء في تخطيط المدن وفق معايير بيئية جيدة ، كذلك قام الرسول عليه السلام بتأمين مصادر للمياه العذبة ، وحرص الصحابة الأغنياء على توفير ذلك ، وعلى أثر ذلك جاء العلماء عبر العصور المختلفة فجعلوا

(١) تقرير ٩٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) نفس المصدر، ص ١٧٦ .

والفساد أصله استحالة - تحول - منفعة الشيء النافع إلى مضرة به أو بغيره . وقد يطلق على وجود الشيء مشتملاً على مضرة وإن لم يكن فيه نفع من قبل ويقال أفسد إذا عمد إلى شيء صالح فأزال صلاحه^(١) .
وعلىنا أن ندرك جيداً أن الشرع لم يحظر كل إزالة لصلاحية الشيء . وإنما حظر فقط تلك الإزالة التي لا يترتب عليها نفع أكبر أو مصلحة أهم . بحيث يكون في الإبقاء عليها تضييع لما هو أهم وأنفع ، وفي داخل هذا الإطار يمكن فهم الحديث الشريف الذي فيه الأمر بقتل الفواسق الخمس ، الغراب والحدأة والفأر والعقرب والكلب العقور . فإن ما تحدثه تلك الكائنات من مضار ومفاسد وخسائر أمر لا يجهل . واذن ففي التخلص منها حماية للبيئة بمفهومها الشامل وبالم منظور الكلي المتكامل لنظامها . وآمل أن يحتل مصطلح إفساد الأرض مساحته اللائقة به على خريطة الاهتمامات البيئية ، فهو أدق وأوضح وأجمل من مصطلح الاعتداء على البيئة ، وما يبشر بالخير أنه أخذ في الشيع^(٢) .

٤/١ - الاسراف: أكبر مدبر للبيئة :

لو فطن علماء البيئة وعلماء التنمية إلى ما يحدثه الاسراف من آثار تصل في خطورتها وجسامتها إلى حد تدمير البيئة وشل حركة التنمية لأقاموا الدنيا وأقعدوها جرياً وراء محاربة هذا السلوك الانحرافي وإزالته من واقع الناس أو على الأقل تحجيمه واضعافه ، انه وراء كل صنوف

(١) ابن عاشور، مرجع سابق، ج ١ ص ٢٨٤ .

(٢) ولا أدل على ذلك من تلك التقارير والدراسات التي قدمت بمناسبة انعقاد «قمة الأرض» ولعل مما تجدر ملاحظته على هذا المؤتمر العنوان الذي اتخذته لنفسه .

آخر «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو بهيمة أو إنسان إلا كان له به أجر»^(١).

وأخذاً من تلك النصوص فرَّع الفقهاء التفرعات الفقهية العديدة حيال حسن معاملة الحيوانات، وكيفية التصرف في مواجهة من يعتدي عليها أو حتى يهمل في طعامها وشرابها أو يحملها مالا طاقة لها به، ووصل الأمر إلى الإلزام الرسمي والحكومي لصاحب الحيوان على حسن معاملته والافتقار عليه. يقول الماوردي: «نفقات البهائم واجبة على أربابها لقول النبي ﷺ اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم.. فدل على أمرين، على حراسة البهائم باطعامها حتى تشبع وسقيها حتى تروى، سواء كانت مأكولة أو غير مأكولة، فإن قصر فيها حتى هلكت أو أنهكت أثم، وعند امتناع صاحب البهائم عن إطعامها وسقيها فإن ولي الأمر يلزمه بذلك أو بيعها»^(٢) وعلى المحتسب واجب القيام بذلك ضمن مهامه الأخرى.

وإذا كانت هذه الأوامر تتجه إلى الأفراد مع قلة المضار المترتبة على عدم امتثالها أو بعبارة أخرى على السلوك العدواني لهم على البيئة فإنها

(١) رواه البخاري، انظر ابن حجر، فتح الباري، المطبعة السلفية، ص ٥٣ ح ٣.
(٢) الماوردي، الحاوي الكبير، كتاب النفقات، تحقيق عامر بن سعيد، رسالة الدكتوراة، جامعة أم القرى، ص ٩٨١ وما بعدها.

وربما يورد علينا في هذا الصدد الحديث الشريف «خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم، الحداة والغراب والفأرة والعقرب والكلب العقور» حيث يبدو شيء من التعارض بين الأحاديث التي تدل على صيانة وحماية البيئة الحيوانية وبين هذا الحديث. والحقيقة أنه لا تعارض عند التأمل. فهذه الحيوانات ضارة وقد ذكرها الحديث بوصفها «فواسق» والإبقاء عليها يلحق الضرر بالإنسان والأموال، أي أنها تسهم في تدمير الإنسان أولاً وفي تدمير التنمية والبيئة ثانياً، ومن ثم فإن الموقف السليم حيالها هو إلزائها، ولا يعد ذلك اضراً واعتداءً على البيئة، وإنما هو مثل تشذيب وتهذيب النباتات والحيوانات فهل يعد ذلك اعتداءً بشرياً على البيئة؟؟؟

والتبذير ربما لا يخفى على الكثير سواء في ذلك العلماء أو العاميون، إنه مجاوزة الحد، في الكم وفي الكيف، إن استخدام الأموال في المحرمات وإن قل هو من التبذير والاسراف، كما أن استخدامها في المباحات بقدر أكثر من الحد أو مع تجاهل لمبدأ الأولويات كل ذلك داخل في صميم المضمون^(١).

(١) لعرض مفصل لأقوال العلماء في مفهوم كل من الاسراف والتبذير يراجع د. شوقي دنيا، تمويل التنمية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص ٢٢٣ وما بعدها. د. عبدالسلام العبادي، الملكية في الشريعة الإسلامية، عمان: مكتبة الأقصى، ص ٨١ وما بعدها القسم الثاني.

وكذلك تجدر الإشارة إلى ان موقف الشريعة من تلوث البيئة لا يقف عند حد ماذكر في كتب الحسبة ، فلقد تناول الفقهاء ذلك الأمر في مناسبات عديدة تناولاً مفصلاً ، سواء في كتب الفقه المعتادة ، أو في كتب الفتاوي والنوازل^(١) ، وبهذه المناسبة نشير إلى فتوى ذات أهمية بالغة في موضوعنا هذا تتعلق بتلوث المياه من خلال قيام بعض الأشخاص - ناهيك عن الحكومات - بتصريف الفضلات الآدمية في المياه ، كما هو مشاهد كثيراً اليوم ليس فقط على مستوى الأفراد بل على مستوى الحكومات .

يقول ابن رشد فيمن بني كرسيا للحدث على ماء يجري في جنات للسقي والشرب منه وعليه أرحاء - جمع رحي - واحتج الباني أنه - أي التصريف - لا يغير الماء لكثرتة : «يجب قطع هذا الضرر ، والقضاء به لازم قام بذلك بعض أهل الجنات أو من سواهم بالحسبة ، وعلى الحاكم أن ينظر في ذلك إذا اتصل به الأمر ، وان لم يقم عنده به قائم بأن يبعث إليه العدول فإذا شهدوا عنده قضى بتغييره لما في ذلك من الحق لجماعة المسلمين»^(٢) .

٤ - التأكيد على المحافظة على البيئة الحيوية والحرص علي تنميتها : سبق أن أشرنا إلى ان آيات القرآن الكريم تترى مؤكدة على أن ما يحيط بالإنسان من مخلوقات حيوية أو غير حيوية إنما هي نعم من الله تعالى خلقها من أجل الإنسان ، ومعنى ذلك ضرورة المحافظة عليها وضرورة

(١) لمعرفة مجمعة بأقوالهم يراجع د . عبدالسلام العبادي ، الملكية في الشريعة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٢٩ وما بعدها ح ٢ ، موسوعة الفقه الإسلامي الكويت : ص ٢٤١ ، وما بعدها ، ح ٣ .

(٢) ابن رشد ، فتاوي ابن رشد ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ص ١٣٣٠ ، ح ٣ .

٢- علاقة الإنسان بالبيئة

٢/١- علاقة غير المسلم بالبيئة :

هذه القضية استهوت العديد من العلماء والفلاسفة على مر العصور، وخلاصة رصدهم لهذه العلاقة تمخضت عن ثلاث مدارس، مدرسة الحتمية التي تذهب إلى ان البيئة هي صاحبة الكلمة الأولى في تشكيل هذه العلاقة. وعلى النقيض من ذلك جاءت مدرسة الإمكانية التي تعطي للإنسان الوزن الأكبر في صياغة هذه العلاقة. ثم كانت أخيراً التوفيقية والتي تذهب إلى ان العلاقة من خلال دور فعال لكل من الإنسان والبيئة، حيث يارس كل منهما تأثيراً في الآخر^(١).

ومن المنظور العملي الواقعي نلاحظ أن هذه العلاقة غلب عليها طابع الاختلال، وقد تأرجحت في التطرف إلى حدي العبودية والتأله. في حالات ليست بالقليلة خضع الإنسان للبيئة ممثلة في بعض جوانبها خضوع العبد للآلة، وفي حالات كثيرة وجدنا العكس، وخير مثال على الحالة الأخيرة ما أفرزته الحضارة الغربية الحديثة، حيث ضاغت العلاقة «الانسابية» على أساس تأله الإنسان على البيئة، وقد ترتب على ذلك ماترتب من قهر واغتصاب للبيئة^(٢) ولنستمع لبعض علمائهم يصور لنا

(١) د. حسن نجم وآخرون، الإنسان والبيئة، الكويت، دار البحوث العلمية، ص ٦٩، د.

زين الدين عبدالمقصود، مرجع سابق، ص ٩ ومابعداها.

(٢) رينيه دويو، إنسانية الإنسان، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص ٢٣٨، ٢٦٩، كافين رايلي، الغرب والعالم، ترجمة د. عبد الوهاب المسيري، سلسلة عالم المعرفة (٩٧) جـ ٢. ص ٣٢. ومابعداها، ميزاروفيك وبستيل، البشرية في مفترق الطرق، ترجمة د. حسين عمر، جدة: مكتبات عكاظ، ص ٥٤ ومابعداها.

وهل هناك أبلغ في الحرص على طيب الهواء وعدم أحداث أي تغيير سيء فيه وإن قل من منع من يأكل ثوماً أو بصلاً من شهود الجماعات والمجالس؟ .

وكما هو شأن التشريع الإسلامي في كل حالاته حيث لا يقف به الأمر عند حد النواهي والأوامر وإنما يوجد الآلية للتنفيذ، وفي هذا المجال أوجد الإسلام ما يعرف بجهاز الحسبة، ومن أهم مسؤوليات المحتسب وصلاحياته المنع من كل ما يؤدي إلى تلوث البيئة وعدم نظافتها، سواء في ذلك الهواء أو الماء أو الأماكن أو المواد والمنتجات، وهذه مجرد أمثلة توضح لنا بعضاً من ذلك^(١).

يمنع المحتسب من استخدام رجال الأعمال المواد وأدوات ملوثة، يستوي في ذلك المواد الخام والمواد المساعدة، وكذلك رؤوس الأموال، مثل المواعين والأدوات، وكذلك الجهد البشري والأيدي العاملة، يجب أن تقدم خدماتها نظيفة غير ملوثة.

كما يمنع المحتسب رجال الأعمال من استخدام آلات وأساليب ملوثة، بحيث تنتج تلوثاً بيئياً في الهواء أو الماء أو الطريق أو غير ذلك، مثل مداخن الأفران والحمامات - ويقاس عليها كل المداخن - ومثل الذبح في الطرقات حيث يلوث الطريق والهواء بالدم والروث. ومثل أمر المصانع والأسواق بكنس وتنظيف أرجائها من الأوساخ والفضلات، وضرورة أن تكون بعض المحلات ذات مواصفات بيئية خاصة في مبناها

(١) لمعرفة مفصلة يمكن الرجوع إلى:

ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٦٨ م.
عمر بن محمد السنامي، نصاب الاحتساب.
محمد القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة.

أكثرهم لا يعلمون»^(١). لكنه لا يتحرك خطوة في الاتجاه الصحيح الذي يتواءم وهذا الاعتقاد فينصاع لتعاليم وأوامر الخالق عز وجل ، ويتعامل مع البيئة كما لو كانت مخلوقة بطريقة المصادفة ودون ماسنن وضوابط ودون ماهدف وغاية واذن فمتروك له ان يشكل علاقته بها حسبما يريد وفي ضوء موازين القوى بينه وبينها ، أحياناً يرهبها فيعبدها ، وأحياناً يعتزلها ، وأحياناً يعمل على قهرها واغتصابها ، وأحياناً يتعامل معها بعقل واتزان . ويقول عن اطراد ظواهرها قوانين الطبيعة ، ويقول عن تغيراتها فلتات الطبيعة .

إن دراسة هذه القضية رغم ما قد يتراءى للبعض أنها ربما تكون قليلة الجدوى بالنسبة لنا- تحتل في نظري أهمية متزايدة ، كما أنها لم تنل حقها بعد ، إننا نعيش في أرض واحدة كمن يبمحرون في قارب واحد ، وأي سلوك من أي فرد سينعكس بالضرورة أثره على غيره . وهناك اعتراف متزايد نابع من الواقع المعاش بأن آثار السلوك البيئي لا تقف على الاطلاق عند القائم بالسلوك ، ولو لوئت دولة بيئتها فإن العالم كله سيضار من جراء هذا التصرف . ان تضخم واستفحال المشكلات البيئية كان لها فضل تعريفنا الدقيق بوحدة المصير كجنس بشري وبأننا فعلاً في سفينة واحدة ، وأي عبث أو فساد في أي جزء منها هو إفساد لها كلها وهلاك للجميع .

(١) سورة لقمان : الآية ٢٥ .

والأوامر والنواهي لزوال هذا السلوك المنحرف؟

يمكن القول ان ذلك كاف في زوال الإسراف من المجتمع الإسلامي كظاهرة لكنه قد لا يحول دونه كانهرافات فردية^(١)، وهنا نجد الإسلام يتدخل لعلاج مثل تلك الحالات بما تستحقه، ونظن أنه ليس هناك أبلغ في مواجهة هذا السلوك المنحرف من اعتبار صاحبه سفيهاً، والسفيه في الإسلام يحجر عليه حتى يعود إليه رشده^(٢) ولم يغل الإسلام يد الدولة عن اتخاذ أية إجراءات تراها سليمة لمواجهة ذلك، ولذا وجدنا الدولة في عهد عمر رضي الله عنه، تنظم عمليات الاستهلاك بما يحول دون الإسراف^(٣).

والذي يعنينا ليس هو الصورة أو الأسلوب الذي اتخذته حيال ذلك، فهو متوقف على الظروف والملابسات، لكن المهم هو المبدأ الذي يخول للدولة حق استخدام مآثره كفيلاً بذلك طالما أنه في إطار القواعد الشرعية، وقد نقل الامام الغزالي أن بعض العلماء يجيزون فرض الضرائب للحد من الاسراف وان كان هو لم ير ذلك^(٤). ومهما يكن من أمر فنحن منهيون بنصوص صريحة عن الاسراف، وعلمنا اتخاذ كافة الوسائل الصحيحة لتحقيق الامتثال، وليس هناك ما يمنع من الاستفادة مما يتوصل إليه الفكر المعاصر من أدوات ووسائل طالما أنها لا تتعارض مع نص أو قاعدة شرعية.

(١) بمعنى أنه يوجد لدى بعض الأفراد في المجتمعات الإسلامية، نوازع إسرافية.
(٢) الشافعي، الأم، دار المعرفة، ص ٢١٥ ج ٣ مجلد ٢، الحصص، أحكام القرآن، دار الكتاب العربي، ص ٤٨٨ ح ١، ابن العربي، أحكام القرآن، مكتبة الخي، ص ٣٢٢ ح ٢، البهوتي، شرح منتهى الإرادات، مطبعة أنصار السنة المحمدية، ص ٢٩٠ ح ٢.
(٣) البهي الخولي، الثروة في ظل الإسلام، الناشرون العرب، ط ٢، ١٩٧١، ص ١٨٢.
(٤) شفاء الغليل، بغداد، مطبعة الارشاد، ص ٢٤٣ وما بعدها.

التحذير والتي منها أن مغبة ذلك ستعود عليه هو وأنه أول من يضار من إفساد الأرض طبيعياً أو معنوياً .

إذن الأمر في علاقة الإنسان بالبيئة ليس كما يميل إليه هوى بعض الناس . إنه مضبوط بسنن وقوانين لا يستطيع الإنسان خرقها .

ولعل خلاصة القول هنا ان علاقة المسلم بالبيئة ترفض التعطيل والاعتزال والترك ، إذ أن ذلك مناف لفطرة الإنسان ومضاد لوظيفته ، كما أنه مناف للحكمة من خلق البيئة فهي لم تخلق لتعطل ولتظل أسرارها مكنونة مكنوزة . كما أن هذه العلاقة ترفض الاستنزاف ، لأن البيئة لم تخلق لجيل دون جيل وإنما هي حق البشرية كلها في كل الأماكن وفي كل الأزمان ، وهي مصدر حياة الأجيال المقبلة إلى قيام الساعة . واستنزاف البيئة هو بذلك اعتداء عليها من جانب واعتداء على كل الأجيال المقبلة من جانب آخر . وتلويث البيئة هو استنزاف لها وتدمير لخصائص النفع فيها . ومن ثم فهو مرفوض رفض الاستنزاف تماماً بتمام بل ربما كان أشد خطراً لجسامة آثاره ، حيث يمتد الاعتداء للجيل الحاضر ولا يقف عند الأجيال القادمة فحسب .

وإذن لا مفر من العمل المشترك القائم على الاحترام والعرفان بما هنالك من منافع وحقوق . والإيمان الكامل بأن ما يحيط بالإنسان ليس مجرد جهاد وحيوان ونبات وإنما هو نعم الله عز وجل . ولعلنا ندرك ذلك من إتيان القرآن الكريم بلفظة النعم مقرونة بهذه المخلوقات . وفي ذلك مافيه من الخس على حسن التعامل معها . ولعل مما يلفت النظر كذلك هو حرص النسق القرآني على إبراز أن المسخر والمذلل للكون وما فيه وجعله نافعاً للإنسان إنما هو الله تعالى وحده حتى لا يغتر الإنسان بما قد

منشؤه ومخاطره وكيفية مواجهته ، وفي أحسن حالاتها نجد بعض الإجراءات العقابية التي قد يكون لها أثر غير مباشر حيال الحد منه ، لكننا في الإسلام نجد الأمر على غير ذلك تماماً ، فالإسراف هو جريمة في نظر الإسلام ، ولذلك جاءت النواهي الصريحة في الكتاب والسنة . والإسراف سلوك مذموم مستهجن في نظر التربية والثقافة والعقيدة الإسلامية ، ويكفي ان القرآن الكريم يصرح بأن الله تعالى لا يحب ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(١) ، والاسراف انحراف جوهري في السلوك الإنساني حيال الكون عامة وحيال الأموال خاصة ، بل انه مرض نفسي مدمر .

وقد ربط الإسلام بقوة بين الإسراف والإفساد في الأرض . قال تعالى : ﴿وَلَا تَطْغَوْا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾^(٢) ، وبالتأمل نجد الاسراف مصدر تلوث والاستنزاف . ولم يقف الأمر بالإسلام عند هذا الحد في التعامل مع الإسراف بل تعداه إلى التعريف بمظاهره وأبعاده المختلفة في الأكل والشرب والملبس والسكن والانتقال ، وفي كل شيء حتى في الشعائر ، لا نجد الإسلام يرحب بالإسراف في أدائها ، ولعل من الأحاديث ذات الدلالة البالغة في ذلك قوله ﷺ لأحد الصحابة حيث يتوضأ من جدول «ما هذا السرف؟ فقال : أفي الوضوء إسراف؟ فقال : نعم ولو كنت على نهر جار»^(٣) . في الوضوء ، ومن جدول مياه كبير ، والماء المستعمل يرتد ثانية إلى الجدول ولا يضيع ، والزيادة هنا مهما كانت فهي ضئيلة ، ومع ذلك جاء النهي الصريح ، إشارة إلى ان الإسراف في حد ذاته وبغض النظر عن ملاساته

(١) الأنعام ، الآية رقم : ١٤١ .

(٢) الشعراء ، الآيات : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٣) رواه ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، ص ١٤٧ ج ١ .

٣- جوانب الافساد في الأرض «الاعتداء على البيئة»

إن الاعتداء على البيئة مصطلح شائع يقصد به سوء التعامل معها وسوء استخدامها، الأمر الذي يؤدي إلى ضعفها وإجهادها ومرضها ومن ثم تدهور حالتها وزوالها أو الكثير من مقوماتها.

وبالتأمل في صور وأشكال وأبعاد هذا التعامل البيئي السيء نجد أنها يمكن أن تندرج تحت تصنيفات أو عناوين ثلاثة كبرى، هي: التلوث والاستنزاف والتعطيل، وفيما يلي نتناول كل جانب من تلك الجوانب بكلمة كلية حتى نكون على بينة بأهم صور العدوان البشري على البيئة، ومن ثم نعمل على حماية البيئة منه، ونتعرف على حدود التعامل الصحيح والرشيد منها.

٣/١- التلوث :

في اللغة يقال: لوث ثيابه بالطين أي لطحها، ولوث الماء أي كدره^(١). وهو عند عهلماء البيئة يعني تراكم عناصر ضارة وغير مرغوب فيها^(٢). ويترتب عليها فقدان وانعدام أو تدني صلاحية البيئة للقيام بوظائفها وتقديم مالا يستغنى عنه من منافعها وخدماتها.

ولخطورة هذا اللون من الاعتداء البشري على البيئة وجدنا العلماء المختصين بالتلوث، ورأينا العديد من المؤلفات والدراسات والأبحاث

(١) الجوهري، الصحاح، مرجع سابق، ج ١ ص ٢٩١. وانظر ابن خلدون، المقدمة، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى ص ٣٠٢.

(٢) د. محمد جمعة، مرجع سابق، ص ١٠٦، جي هولتي ولسون، الاقتصاد الجزئي، ترجمة د. كامل سلمان العافي، دار المريخ، ص ٥٦٩.

Moran & others, Introduction to Environmental Science, W.H. Freeman & Company, N. York: 1986, P211.

٢/٦ - موقف الإسلام:

وإذا كان تناولنا لطرق وأساليب حماية البيئة من المنظور الوضعي جاء مجملًا وسريعاً فإن تناولنا لطرق وأساليب حماية البيئة من المنظور الإسلامي ينبغي أن يكون على قدر من التفصيل والبسط .

وبداية نحب أن نؤكد على نقطة نراها جوهرية وهي ان المنظور الإسلامي حيال طرق وأساليب حماية البيئة لا يغاير على طول الخط المنظور الوضعي ، بل هو في الحقيقة يتفق معه في الكثير مما ينادي به حالياً لكنه يتفوق عليه وذلك لتعامله مع عناصر جديدة تكسب الجهود مزيداً من الكفاءة والفعالية .

وحرصاً على عدم التكرار- قدر الامكان- وعلى ترابط وتسلسل العرض نجد من المفضل أن نشير إلى ان الحل الإسلامي لمشكلات البيئة القائمة والمتوقعة يركز على عدة عناصر تتفاعل وتتكامل فيما بينها مقدمة مواجهة فعالة حيال إفساد الإنسان للبيئة ، ونذكر من تلك العناصر مايلي :

١ - الاعتماد على مدخلي الوقاية والعلاج معاً : بمعنى أنه يتعامل مع المشكلات البيئية على مستويين : مستوى الجذور العميقة والقريبة ، ومستوى ماينجم عنها وينتج ، فهو يعمل جاهداً على عدم حدوثها وإذا حدثت عاجلها بما تستحق ، ومن ثم نجده يحرص كل الحرص على جعل العامل العقدي والثقافي بحيث يباعدان بين الإنسان والاعتداء على البيئة ، فالقرآن الكريم مليء بالآيات اليبينات ، والسنة النبوية الشريفة محتوية على العديد من الأحاديث والمواقف التي توضح للإنسان وضوحاً بيناً أهمية مايحيط به من كائنات حية أو غير حية ، وكيفية التعامل معها تعاملًا صحيحاً ، في ضوء أهميتها له من جهة ، وكونها خلق الله تعالى من

المخاطر هنا الإشارة الكلية إلى بعض صور التلوث في المجال البيئي الاجتماعي . انظر مثلاً الشذوذ الجنسي وما ترتب عليه من أمراض فتاكة أشد فتكاً وانتشاراً من كل الأمراض المعهودة ، وانظر الآثار المترتبة على ذلك مالياً واقتصادياً^(١) . وانظر المخدرات بأنواعها المختلفة لا سيما الحديثة منها ومقدار ما تحدثه من فتك بالإنسان وعقله وماله وأخلاقياته وسلوكياته . وانظر كذلك الفساد السياسي وما يترتب عليه من كبت ومظالم وتخلف وتدمير للموارد والطاقات . وانظر أخيراً إلى مظاهر الترف والتبذير وشيوع قيم الخيلاء والتفرد والتقليد وعبادة المادة . والجري اللاهث وراء الكثرة في المقتنيات ، واعتبار السعادة دالة مطردة في هذه الكثرة ، ومن ثم اتخاذ التكاثر والكثرة نمطاً حياتياً وقيمة من القيم العليا في المجتمع . ولو أخذنا في تعداد تلويث الإنسان لبيئته الاجتماعية وتبيان مظاهره وما يترتب عليه من آثار بالغة السوء لضاق المقام . ولهذا ولغيره لا نجد غرابة في اهتمام الإسلام البالغ بهذا اللون من السلوك المفسد للبيئة الاجتماعية والملوث لها ، والحيلولة دون وجوده أو على الأقل دون شيوعه بكل الأساليب الفعالة .

٣/٢ - الاستنزاف :

إذا كان التلوث الذي هو أحد أوجه اعتداء الإنسان على البيئة أو

(١) لمعرفة بجانب من ذلك يراجع جيل أرمسترونغ ، الآثار الاجتماعية والاقتصادية ، للإيدز في البلدان النامية ، مجلة التمويل والتنمية ديسمبر ١٩٩١ .

من جدية لها من أهمية، كما لاننكر مدى التطور والتحسين الذي يطرأ عليها بسرعة متزايدة، وقراءة واعية لأعمال قمة الأرض الأخير توضيح ذلك بجلاء .

ورغم هذا فإننا نلاحظ أن هناك بعض العناصر الضرورية غائبة، أو على الأقل لم تأخذ حقها من العناية، فمثلاً لا نجد في حالات غير قليلة النظرة المتكاملة والخطة الشاملة الواضحة، كما ان عنصر الالتزام والالتزام سواء على المستوى الدولي أو على المستوى المحلي لم يأخذ حقه . وبدونه لا يتجاوز كل ما قيل أن يكون مجرد حبر على ورق، كذلك فإن الجهود المبذولة يبدو أنها تخيرت الطرق السهلة ونأت بأنفسها عن المسالك الوعرة، رغم انها قد تكون أكثر فعالية وكفاءة، فمثلاً نجدها تبتعد تماماً عن دراسة الجذور الأم لهذه الاعتداءات، والتي تتمثل أولاً وقبل كل شيء في المعتقدات والقيم والثقافات، تلك التي تحدد نظرة الإنسان الصحيحة للكون، ولما فيه، ولما هو عليه من سنن وقوانين، كما تحدد معايير السعادة والحياة الطيبة للإنسان، وقد رأينا أن هناك خللاً جوهرياً في هذا المجال باعتراف علماء الغرب أنفسهم، فكل الجهود المبذولة مرت عليه مروراً عابراً، ثم ان الموقف من التكنولوجيا على ما به من قوة غير أنه يفتقر على الأقل إلى عاملين لضمان قيامه بمهمته الإيجابية أولاً تواجد الإرادة السياسية القوية التي تحدد للتكنولوجيا أهدافها وما يطلب منها . وثانياً توافر التمويل الكافي لإنجاز التكنولوجيا، والمعروف ان الدول النامية ليس في إمكانها في معظم الحالات القيام بذلك من غير دعم قوي وفعال من الدول المتقدمة .

والواضح أن هذين العاملين لم يشدد عليهما جيداً، ولم توضع بعد الآلية الفعالة لإنجازهما . وإشارات الجهود المبذولة حيال عملية التنمية

الأرض إلا سهلاً من غبار»^(١)، واستناداً إلى تقرير العالم عام ٢٠٠٠ فإنه «بحلول العام ٢٠٢٠ يتوقع أن تكون قد أزيلت من الناحية الفعلية جميع الغابات التي يمكن مادياً الوصول إليها في البلدان الأقل نمواً»^(٢) وأخيراً يرى الخبراء أن تدهور التربة في كثير من البلدان النامية - وهو عملية لا رجعة فيها ولا إمكان لاصلاحها - يمكن أن يعرض للخطر قدرة السكان على انتاج أغذيتهم الأساسية .^(٣)

٣/٣ - التعطيل :

قد يكون من المستغرب أن يكون تعطيل التربة من باب الاعتداء عليها، إذ كيف يكون ذلك والحال أنه توفير لها ومحافظة عليها؟؟؟ لكن حقيقة الأمر تدلي بغير ذلك، وتعتبر التعطيل اعتداءً شأنه شأن التلوث والاستنزاف تماماً بتمام. ومرجع ذلك أننا نقيس المشكلة البيئية أساساً بمدى الضرر الذي يلحق بالإنسان من خلال تعامله معها^(٤)، فمثلاً التلوث يفسد البيئة، وهو يضر بالإنسان عندما يتجاوز حدوداً ومعايير وضعها العلماء وإذن نحن هنا أمام مشكلة بيئية أو أمام اعتداء إنساني على البيئة. نفس الشيء نلاحظه في الاستنزاف، حيث موارد تهدر وتباد مثل التصحر وتعرية التربة وفقدان المياه. الخ. وفي ذلك ضرر على

(١) رينيه ديو، إنسانية الإنسان، مرجع سابق، ص ٢٢٦. ولزبد من المعرفة يراجع مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص ١٨٩، ومابعدا.

(٢) نقلاً عن جاك لوب، العالم الثالث وتحديات البقاء، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، عالم المعرفة (١٠٤) ص ١٥٤.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٣.

(٤) غوردن هيوز، تنظيف البيئة في أوروبا الشرقية، مجلة التمويل والتنمية، صندوق النقد الدولي، عدد سبتمبر سنة ١٩٩٢ ص ١٦.

رفض رئيس الولايات المتحدة التوقيع على بعض الاتفاقيات مبرراً موقفه «بأنه ليس بوسعها إعطاء الأولوية للبيئة على حساب توفير فرص العمل للعاطلين الأمريكيين، وليس بمقدوره التدخل بفرض شروط بيئية على الشركات والصناعات الأمريكية لأن هذا يتناقض مع مقتضيات العمل بقواعد الاقتصاد الحر»^(١).

ثم ان مجرد تحويل المؤسسات الاقتصادية من مؤسسات خاصة إلى مؤسسات عامة قد أثبتت الدراسات الميدانية أنه لن يحل المشكلة بل ربما زادها تعقيداً.

وانتهت الأنظار أخيراً بقدر من القوة حيال استخدام السياسة الاقتصادية بحيث تعمل على حماية البيئة من خلال ترشيد الانفاق العام وترشيد الضرائب وترشيد الرسوم والأثمان العامة وترشيد نظم الملكية^(٢).

وانتقل الفكر البيئي التنموي نقلة كبيرة حيث لم يعد يرى تكييف المسألة على أساس العلاقة بين البيئة والتنمية، والنظر لهما على أنها متقابلان، بل أخذ يركز على أن المسألة هي اختيار السياسة الانمائية التي تحابي البيئة ولا تحاربها، أي ان الموضوع أصبح يدور حول نوعية التنمية وليس حول التنمية نفسها. وهذا تقدم كبير من الناحية الفكرية نأمل أن يواكبه بنفس القوة التطبيق العملي.

وقد أكدت الدراسات على وجود العديد من الروابط الإيجابية بين كل من التنمية والبيئة كما أبرزت بعض الروابط السلبية، ورأت أن العمل

(١) سجينى دولار ماني، مرجع سابق.

(٢) تقرير ٩٢، ص ١٦١، ١٦٣، ١٢٩، وتقرير ٨٨، ص ١٤٠، اندرو ستير، مرجع سابق، جون شيلينغ، تأملات في الديون والبيئة، مجلة التمويل والتنمية، يونيو ١٩٩٢ م.

قلنا، إنما نتركه وذلك إذا كان له معاش غيره يغني عن زرعها، وهذا بلا شك صلاح للأرض واحمام لها. وأما إذا لم يكن له غنى عن زرعها فإنما يجبر على زرعها إن قدر على ذلك، أو على إعطائها بجزء مما يخرج منها، ولا نتركه عالية على المسلمين بإضاعته لماله ومعصيته لله عز وجل^(١).

الشاهد هنا هو وضوح التفرقة بين التعطيل وما يحدثه من إضاعة للمال والبيئة وبين الترك الجزئي المؤقت كذلك الفهم الدقيق لمضمون الآية الكريمة وبيان أنها صريحة في تحريم الاعتداء على البيئة في عناصرها الطبيعية وغير الطبيعية. ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن التعطيل من حيث شيعوه واقعياً قد لا يكون على درجة التلوث والاستنزاف. مع أننا لو أمعنا النظر في أوضاع العالم المتخلف لوجدنا أن هذا السلوك له مساحة واسعة من الواقع. ومهما يكن من أمر فإننا معشر المسلمين مطالبون باستخدام البيئة الاستخدام الحسن ومنهيون عن ترك استخدامها. ولذلك يقول أبو يوسف رحمه الله: «ولا أرى أن يترك الإمام أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج»^(٢) ولعله ليس أبلغ في التحريض على استخدام الموارد وعدم تعطيل البيئة من قوله ﷺ: «من أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث»^(٣).

ومن هذا القبيل قول ابن حزم: «ويأخذ السلطان الناس بالعمارة

(١) انظر المحل، القاهرة: مكتبة الجمهورية، ج ١١ ص ٣٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر الخراج، القاهرة: المكتبة السلفية، ص ٦٦.

(٣) رواه أحمد والترمذي وصححه انظر نيل الأوطار، بيروت، دار الجبل، ج ٦ ص ٤٤.

(٤) نقلاً عن ابن الأزرقي، بدائع السلك في طبائع الملك، بغداد: وزارة الإعلام، سلسلة كتب التراث رقم (٤٥) ج ١ ص ٢١٩.

٦- طرق وأساليب حماية البيئة :

١/٦ - موقف الفكر الوضعي «المعاصر» :

في ظل الشعور المتزايد بجسامة المضار المترتبة على تدهور البيئة هبّ العديد من الجهات والمنظمات محلياً وإقليمياً ودولياً للإسهام في حماية البيئة وتقديم مآتراه من طرق ووسائل فعالة في هذا الصدد، وقد تنوعت المداخل والاجتهادات، تبعاً لتنوع الاختصاصات من جهة، ولتنوع مظاهر التدهور البيئي من جهة أخرى، ولتعدد عوامله من جهة ثالثة، ولتغاير وتباين المشكلات البيئية بين كل من الدول النامية والدول المتقدمة، بل بين الدول النامية وبعضها البعض من جهة رابعة.

ومهما يكن من أمر، فإن معظم تلك الاهتمامات قد تمحورت حول عدة اتجاهات أو بالأحرى حول مجموعة من العناصر التي تكون فيها بينها حزمة متكاملة من العلاج.

من بين تلك الاهتمامات مايركز على مشكلة الانفجار السكاني في الدول النامية، ويرى ضرورة معالجة هذه المشكلة، لا جدوى من أي جهد يبذل لحماية البيئة في ظل تواجد هذه المشكلة.

بينما يرى الكثير من الكتاب أن هذا العامل لا يمثل تهديداً عالمياً للبيئة^(١). كما أن تهديده لها أقل بكثير من تهديد غيره، ثم إن علاجه الفعال هو الذي لاينصرف مباشرة إلى تقليل حجم السكان من خلال مايعرف مثلاً بتنظيم النسل وإنما مواجهته الفعالة تتمثل في علاج

(١) محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٤٨، اسماعيل صبري، مرجع سابق، ص ٢٤٩، جاك لوب، مرجع سابق، ص ١٢٤، فرانكلين برك، مرجع سابق، ص ٢١، تقرير ٩١، ص ٤٣ ومابعدها.

وقد يكون عذر الفكر الوضعي أن تلك الاعتداءات السلبية غير شائعة خاصة على مستوى العالم المتقدم اقتصادياً. كذلك نلاحظ على الموقف الوضعي تركيزه على البيئة الطبيعية دون أن يعير اهتماماً يذكر للبيئة الاجتماعية وحمايتها من اعتداء الإنسان عليها مع أن آثار الاعتداء عليها لا تقل ضرراً من آثار الاعتداء على البيئة الطبيعية، ولذلك نجد الموقف الإسلامي حيال البيئة أكثر توازناً حيث لم يحجب جناحاً على جناح، ونأمل أن يوضح هذا البحث بقدر كاف هذه المسألة.

ولو علمنا أن بين تلك الاعتداءات البشرية على البيئة في جوانبها المختلفة من علاقة التسبب الدائري^(١)، حيث كل اعتداء يؤثر ويتأثر بغيره، فالتلوث هو في حد ذاته استنزاف وتدمير، وماء ملوث أو هواء ملوث وجوده كلا وجود بل إن وجوده أشد ضرراً من عدم وجوده كلية، ثم إن الاستنزاف القائم على الشره وسوء الاستخدام كثيراً مايولد التلوث، ونحن نعلم ماتلوثه النفايات والقاذورات من هواء وماء كما إن التعطيل هو الآخر يولد التلوث، والماء الراكد غير المستعمل هو - كما أشار ابن خلدون رحمه الله - ماء ملوث من جهة وسرعان مايضرب من جهة أخرى^(٢).

(١) اللجنة العالمية، مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص ٧٥ وما بعدها. د. أحمد اسلام، مرجع سابق، ص ٢٥، د. محمد عوض الله، مرجع سابق، ص ٥٧. د. محمد صابر، البيئة الطبيعية كمادة دراسية، من أعمال حلقة (الإنسان - البيئة - التنمية) القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر المقدمة، مرجع سابق، ص ٣٨٢ وما بعدها. وقيل ابن خلدون قال الفقهاء إنه لا يصح ترك الأرض عاطلة حتى لا تتحول إلى أرض موات. قال ذلك الماوردي وأبو يعلى وغيرهما.

ذلك هو أن كون تلك السلع مجانية إنما يصدق فقط داخل نطاق اشباع الحاجات الحقيقية فقط وإلا أصبحت أغلى السلع كلها . ومن المفضل من الآن فصاعداً اعتبارها سلعاً اقتصادية ، ومعاملتها في الحسابات نفس معاملة السلع الاقتصادية التقليدية ، حفاظاً عليها وحماية لها .

(ج) تدني مستويات جودة المنتجات : إن فساد البيئة لا يقف أثره الاقتصادي عند ندرة الأموال بل يتعداه إلى هبوط وتدني جودة المنتجات ، ذلك أن عدم توفر الموارد الطبيعية - نتيجة لتلوثها أو استنزافها - يجعل الإنسان يلجأ إلى إحلال موارد اصطناعية محلها مثل الألياف الصناعية والمطاط الصناعي وغيرها ، وغير خاف أن جودة تلك المواد المخلقة وصلاحياتها لإشباع حاجات الإنسان هي أقل بكثير من المواد الطبيعية ، كذلك فإننا نواجه بتواجد مكونات ملوثة في المنتجات ، ومعنى ذلك قصر عمر المنتجات من جانب وعدم كفاءتها الإشباعية من جانب آخر ، ومن ثم تبديد الموارد والأموال . وعلينا ان نلاحظ أن استخدام المواد المخلقة ليس كله ضرراً ، فقد يكون ذلك أمراً مطلوباً لمقابلة الاحتياجات المتزايدة وعدم الضغط على الموارد الطبيعية ، لكننا نتكلم هنا عن اللجوء إلى ذلك من جراء فساد سابق للبيئة .

(د) تصاعد تكلفة الانتاج : ان الاسراف والتبذير في استخدام الموارد يؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى نقص كبير في عرضها ، ومعنى ذلك ارتفاع أسعارها ، ونفس الأمر نجده عند التلوث والاستنزاف عند ترك الموارد معطلة دون استخدام .

وربما كانت الرسالة الكبرى في هذا الشأن أنه ينبغي أن يعرف جيداً أن انهاء البيئة وتدهورها يعمل في النهاية على المزيد من الارتفاع في مستويات الأسعار ، وهو بذلك يمثل أحد مصادر التضخم .

٤/١- العامل العقدي والثقافي :

من المفارقات الملاحظة هنا أنه رغم ضخامة دور هذا العامل وضلوعته في الاعتداء على البيئة إلا أنه لم يلق عناية كافية من علماء البيئة، ولم يصوب إليه المفكرون الوضعيون أنظارهم، اللهم إلا قلة من العلماء والفلاسفة. لم يكن لصوتهم الصدى الكافي وسط هدير الحياة المادية الطاغية، خاصة وأن مواقف هذه القلة لم تقم على دراسات تحليلية مفصلة، وإنما جاءت في شكل إدانة بعبارات عامة فضفاضة، لا يلتفت إليها كثيراً في عصرنا الحاضر.

وقد سبق أن أشرنا إلى جانب من مسؤولية هذا العامل المتمثل في عدم توفر عقيدة الإيمان الحقيقي بالله الذي خلق كلاً من الإنسان والبيئة بنظام معين ولحكمة معينة، ولتحقيق وظائف ومهام محددة، وبغية هذه العقيدة تختل تماماً علاقة الإنسان بالبيئة في معظم الحالات متأرجحة بين العبودية والتأله، وبين السلبية والصراع^(١)، وفي كل جنوح وفي كل اعتداء وفي كل أضرار بالبيئة والإنسان معاً. وإذا أردنا أن نعرف قدراً من حقيقة دور هذا العامل فعلينا أن ننظر إلى آثاره في السلوكيات الأخرى،

(١) وتحضرنا هنا شهادة أحد أعلامهم يقول دبوبو: «والجذور العميقة للقلق موجودة في البنية النفسية للفرد، فالمشاعر الدينية والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلمية وسخافة الأحداث العالمية الباطلة، وبها أن فكرة الآلة كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعة، الخلق والمخلوقات، لذلك يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة... لا قرار له» انظر إنسانية الإنسان، مرجع سابق، ص ١٢.

٥/٢- الآثار الاقتصادية:

تجدر الإشارة إلى أنه كما كان العامل الاقتصادي هو المسؤول الأكبر عن فساد البيئة فإنه - على جبهة الآثار - هو المتأثر الأول بهذا الفساد، وتأثره بذلك متعدد الجوانب والأبعاد سواء من حيث ما يحدثه من ندرة في الموارد، أو من تحول للوفرة في بعضها إلى ندرة، أو من سلع حرة إلى سلع اقتصادية، أو من تزايد في نفقات الانتاج أو من تدني في مستويات الجودة أو في امكانية استمرارية النمو الاقتصادي أو انجازه، أو في اختلال حجم وهيكل التجارة الدولية وتقسيم العمل الدولي أو غير ذلك من الجوانب الاقتصادية التي تتأثر بدرجة أو بأخرى بفساد البيئة. وفيما يلي نبذة عن أهم هذه الآثار^(١).

(أ) تدمير الموارد المالية والبشرية: من مبادئ أدبيات التنمية أنه لا تنمية بلا موارد. وتدهور البيئة معناه بوضوح شديد تدمير وافناء العديد من تلك الموارد على اختلاف أنواعها وطبائعها من طاقة لمعادن لتربة لهواء لغابات لجهد بشري لنبات لحيوان بري وبحري. الخ. وندرة هذه الموارد توقف الانتاج أو تقلل كثيراً من حجمه، وترفع من تكلفته وأسعار مخرجاته، ومعنى ذلك تخفيض في مستويات المعيشة، ومزيد من الصعاب والعقبات في طريق تنمية العالم النامي، ولعلنا بذلك ندرك ان الحفاظ على البيئة شرط ضروري لامكانية قيام تنمية قابلة للدوام.

(ب) اختلال في هيكل الأموال: من المعروف في الاقتصاد أن هناك أموالاً حرة وأخرى اقتصادية. الأولى وفيرة نسبياً، والثانية نادرة نسبياً،

(١) لمزيد من المعرفة، يراجع: تقرير ٩٢، اللجنة العالمية، مرجع سابق، رايلي، مرجع سابق، ص ٣٢٥، مزار ونيك، مرجع سابق، ص ١٨٤، ٨٠، ٧٠، اسماعيل صبري مرجع سابق، ص ٢٤٩، غورنبيه، مرجع سابق، ص ٣٩ ومابعدها، محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٣٧ ومابعدها، فؤاد مرسي، مرجع سابق، ص ٣٣٦ ومابعدها جي هولتون ولسون، مرجع سابق، ص ٥٧٢.

هذا الكتاب رغم التقريظ الذي كتب فيه بحق ورغم اعتباره هجوماً مدمراً على المجتمعات الصناعية الاستهلاكية الحديثة^(٥)، ورغم انه من وجهة نظر بعض المراقبين يعد مليئاً بنظرات ثاقبة أصيلة هامة في الاسلوب الذي نستطيع به تغيير مسارنا الانتحاري هذا، رغم ذلك كله فإنه لم يقدم العلاج الفعال الناجع الذي يزيل هذا المرض المتفشي . وغاية ما استطاع الوصول إليه هو قوله: «ولن نستطيع تغيير أساليبنا مالم نبن أخلاقاً اجتماعية جديدة بل ديناً اجتماعياً جديداً، ومهما كان شكل هذا الدين الجديد، يجب أن يكون أساسه تناسق وتوافق وانسجام بين الإنسان والطبيعة، بدل الميل المتهور المندفع نحو الاخضاع والسيطرة»^(١).

ياسبحان الله . . يتطلع الغرب إلى دين اجتماعي جديد أياً كان شكله شريطة أن يؤمن التناغم والتناسق والانسجام بين الإنسان والطبيعة وأن يزيل عن الإنسان هذا الميل المجنون المتهور نحو اخضاع الطبيعة والسيطرة عليها . أليس في الإسلام ما يحقق كل ذلك وزيادة؟ ألم يقدم نظاماً كاملاً متكاملاً للكون والمخلوقات جميعاً؟، ألم يحدد بدقة فائقة طبيعة العلاقات التي ينبغي أن تسود بين أنواع المخلوقات جميعها؟ . ألم يربطها جميعاً برباط وحيد هو العبودية الخالق واحد؟ . ألم يحدد بوضوح وصراحة مركز الإنسان في الكون ومهمته فيه؟ ألم ينط به خلافة الأرض لعمرائها والمحافظة عليها؟ . ألم يحدد له بكل دقة وتفصيل

(١) نفس المصدر ص ٣٩ .

(٢) لمعرفة مفصلة بموقف الإسلام من هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى : د . سعيد البوطي ، مرجع سابق . د . شوقي دنيا ، التنمية الاقتصادية ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٧٩ ، ص ٤٧ وما بعدها . د . فاروق الدسوقي ، استخلاف الإنسان في الأرض ، بيروت : المكتب الإسلامي .

وجدانه ومشاعره من مضار نتيجة لتدهور البيئة، خاصة ماكان ناتجاً عن تلوثها، وقد أسهب المختصون في توضيح الأمراض والمتاعب الصحية المترتبة على ذلك مما لا يضطرنا هنا إلى ترديده وخاصة أننا لسنا من المختصين في ذلك^(١).

كذلك نجد لتدهور البيئة بعداً سياسياً وأمناً على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية معاً، وقد نهت اللجنة العالمية للبيئة والتنمية بكل قوة إلى هذا الجانب مخصصة له حيزاً مستقلاً من تقريرها ويتلخص ماقدمته بهذا الخصوص في ان الاجهاد البيئي هو سبب ونتيجة في نفس الوقت للتوتر والنزاعات السياسية، وغالباً ماتتم الصراعات الدولية التي تصل إلى حد القتال والحروب لفرض أو مقاومة السيطرة على المواد الأولية وامدادات الطاقة وأحواض الأنهار والممرات البحرية .

وسوف تتزايد وتتفاقم هذه الصراعات كلما ازداد شح الموارد، وتدهورت البيئة، كذلك فإن هناك العديد من الصراعات الداخلية والهجرات الجماعية ولجوء الملايين من البشر مرجعها الجفاف وتدهور البيئة وتعرية التربة .

وخلص التقرير إلى القول : بأن النزاعات قد تنشب ليس بسبب التهديدات السياسية والعسكرية للسيادة الوطنية فحسب، بل قد تنجم عن تدهور البيئة وانغلاق خيارات التنمية^(٢).

وفي مكان آخر من تقرير اللجنة نجد بلورة واضحة لمدى جسامه المضار المترتبة على اعتداءات الإنسان على البيئة نضعها أمام القارئ ليرى

(١) انظر تقرير التنمية ٩٢ ص ١٦ ومابعدها .
(٢) اللجنة العالمية ، مرجع سابق ، الفصل الحادي عشر .

موقف أوروبا من العلم . فيما يتعلق بالجانب الأول نجد بعض العلماء يحمل بشدة على المنهج الذي ساد والذي يقوم على عملية العزل والتجريد والتجزئة ، وعدم الاهتمام الكافي بالبعد الكلي أو التجميعي ، وبما يحدثه هذا النهج من ردود فعل خارجية قد تكون مدمرة . ويصوغ لنا هذا الموقف صياغة دقيقة كومونر في قوله : «إن في نسقنا العلمي ، وفي الفهم المترتب عليه للعالم الطبيعي عيباً أعتقد أنه يساعد على تفسير الإخفاق الحياتي للتكنولوجيا . هذا العيب هو رد الكل إلى الجزء ، أي الاعتقاد بأن الفهم الناجح للنسق المركب يتحقق بالبحث في خصائص أجزائه المنعزلة . فمنهج الرد هذا الذي تتميز به معظم أبحاثنا الحديثة ليس الوسيلة الفعالة لتحليل الأنساق الطبيعية الواسعة المهددة بالتهديد . فملوثات المياه على سبيل المثال تهدد نسيجاً حياً بيئياً متكاملًا بكائناته العضوية الكثيرة . ولا تستطيع الدراسات التي تجري في المعامل على كائنات عضوية مفردة في مزارع نقية أن تقدم وصفاً كافياً لتأثيراتها على النسق الطبيعي برمته . أن نزوع العلم الحديث إلى تفكيك أوصال الطبيعة يوازي نزوعه إلى تجزئة ميادين التخصص . . ثم واصل الحديث مستخلصاً نتيجة صاغها على هذا النحو . النظام الحياتي بخلاف السيارة ، لا ينقسم إلى أجزاء يمكن التعامل مع كل منها على حدة ، لأن خواص هذا النظام تكمن في الكل ، أي في ترابط أجزائه . وأية معالجة تصر على التعامل مع الأجزاء المفصولة وحدها مقضى عليها بالإخفاق»^(١) وفي نفس الموضوع يصرح رايلي قائلاً : «العالم يفصل

(١) في كتابه المثير الحلقة الآخذة في الانغلاق «The Closing Circle» والذي خصصه لدراسة التلوث في الولايات المتحدة في الفترة من ١٩٤٦ حتى ١٩٦٨ نقلاً عن رايلي ، مرجع سابق ، ص ٣٣٠ . وانظر تفصيلاً شيقاً للموضوع ، دبو ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ ومابعداها .

الأخر بعض الآثار الضارة وبدرجة أشد من سابقتها، فلقد حدث تحسن بيئي كبير في مجال الطاقة واستخدام الكهرباء بدلاً من الفحم، وهناك مجال متزايد للتحسين والتطوير، والمشكلة البيئية الحقيقية التي ولدتها التكنولوجيا المعاصرة تتمثل بتكنولوجيا المنتجات التخليقية لتحل محل التكنولوجيا الطبيعية العضوية السابقة، ويذهب بعض المراقبين إلى أنه من خلال هذه المنتجات الجديدة الهائلة مثل المنظفات الكيميائية والمخصبات الصناعية والمبيدات الحشرية والمنتجات الصناعية في المنسوجات والمعلبات فقد أحدثت هذه التكنولوجيا أثراً سلبية أشد فتكاً بالبيئة، وقد أفاض كومونر في تحليل وشرح هذه الأبعاد تحت عنوان مثير هو «الخلل التكنولوجي»^(١).

لماذا كان هذا المنهج؟ وهل هناك منهج مغاير؟ وهل في الوله بالعلم عيب؟ وكيف يمكن إصلاح الموقف؟ ذكر بعض العلماء أن وراء اتخاذ البحث العلمي لهذا المنهج التجزيئي سهولته، من جانب، والافتراض الضمني القائم على أن معرفة المركب ستأتي حتماً من دراسة الأجهزة الأبسط، من جانب آخر. ولن نجازف ونقول ان هناك منهجاً آخر فلسنا من المختصين في هذا اللون من المعرفة، لكن الذي نقوله هو أن بعض العلماء ذهب إلى إمكانية تحسين كبير في الصورة وتطوير فعال في هذا المنهج^(٢). وطالما أن الأمر على هذا النحو فنحن مطالبون ببذل الجهود الدائبة والمستمرة لتطوير وتحسين المنهج العلمي القائم، وتقريبه بقدر الامكان من النظرة الكلية المركبة. ومن الناحية الإسلامية فنحن مطالبون

(١) رايلي، مرجع سابق، ص ٣٢٢ وما بعدها، اللجنة العالمية، مرجع سابق، ص ٣٠.

(٢) دبو، مرجع سابق، ص ٢٤٦ وما بعدها.

ضار، فما هو البديل؟ هل التملك الخاص؟ أم هو التملك العام؟ فيما أرى أنه لابد من وجود اشراف قوي وإدارة من قبل الدولة، خاصة على الغابات الكبرى، حرصاً على سلامتها من جهة، وعملاً على استفادة الجميع منها من جهة ثانية، وإلا لو ملكت ملكية خاصة فقد لا تتحقق تلك المتطلبات. فمن الذي يملك؟ ومن الذي لا يملك؟ وكيف يتصرف فيها؟ الخ.

وعلينا أن نعي حق الوعي بعض التشريعات في هذا الشأن، فمثلاً نجد الإسلام أبطل حمى الجاهلية، حيث كان الأقوياء يستأثرون بالكلأ والمراعي الخصبة، وجعلها حقاً للجميع، ومن جهة أخرى فإنه قد شرع الحمى للمصلحة العامة مثل خيل الجهاد وإبل الصدقة وكذلك ماشية الفقراء. معنى ذلك استشعار الدولة أهمية تأمين مثل تلك المرافق من جهة، وبأن الفقراء قد يضارون لو تركوا وشأنهم مع الأغنياء أمام حق الاستفادة المشترك من جهة أخرى.

كذلك نجد تشريع إحياء الموات. وعلينا أن نلاحظ أن المجال الذي يتم فيه هو الموات وليس الأرض المنتجة العامرة حتى ولو كانت عامرة طبيعياً مثل الغابات، وهو الأرض التي لاملك لأحد ولا حق لأحد فيها، في تلك الحالة يتاح للأفراد إحيائها أي تحويلها إلى أرض منتجة عامرة حية وليست ميتة، وحرصاً على سلامة العملية وعلى عدم وجود آثار سلبية عامة وجدنا بعض المذاهب تقول بضرورة اذن الحاكم في عملية الاحياء هذه.

خلاصة القول: إنه لابد من اهتمام ورعاية الدولة لمثل تلك المجالات واشرافها الفعلي الرشيد على حسن استغلالها مع ملاحظة أنها

والملاحظ أن البحث في هذا الموضوع قد انصرف في مراحله الأولى إلى تعليق المسؤولية على عاتق النمو الاقتصادي الذي نشأ في الغرب منذ الثورة الصناعية، لكنه بعد ذلك أخذ يؤكد على مسؤولية التخلف الاقتصادي عن هذا الاجتهاد البيئي . واليوم نجد النظرة أصبحت أكثر توازناً، فالادانة أخذت تجمع بين كل من النمو الاقتصادي الذي تم في الغرب وبين التخلف الذي مازال جاثماً على صدر أكثر من ثلثي سكان الأرض . وإن اختلفا في درجة الإدانة ومقدار المسؤولية .

وفيا يلي نتناول هذا الموضوع موضحين موقف الاقتصاد الإسلامي حيال هذه القضية :

أولاً: النمو الاقتصادي في منظوره ومفهومه الوضعي والمشكلة البيئية: (١)

لو استعرضنا رأي الفكر الاقتصادي المعاصر في مدى مسؤولية نمط النمو الاقتصادي الذي حدث في عالمنا هذا عن المشكلات البيئية الحادة التي تعرضت لها الأرض ومن ثم الإنسان فإنه يمكن إجمال الموقف فيما يلي :

(أ) فلسفة النمو الاقتصادي:

من استقرار واسع لما كتب في التنمية وما كتب عنها فإنه يمكن استخلاص بعض الأساسيات المتعلقة بمسألتنا هذه . ومن ذلك على سبيل المثال أنه قد فهم في مراحل سابقة أن النمو الاقتصادي يعتمد

(١) لا يخفى على الاقتصادي ما هنالك من تمايز وتغاير في العديد من الجوانب بين مصطلح النمو ومصطلح التنمية، ونحن ندرك ذلك لكننا هنا في هذا البحث نتجاوز ونستخدم كلا المصطلحين كما لو كانا شيئاً واحداً لأن ثمة الخلاف هنا ليست بذى بال .

بيئية عديدة، وسوء استخدامها تحت ضغط الحاجة يؤدي إلى زوالها وتعرية التربة وزوال قشرتها الخصبة المتناسكة ومن ثم تدهورها .

ومن الشائع لدى مختلف المجتمعات اعتبار الغابات والمراعي من المرافق العامة فعليها حقوق عامة للمواطنين للارتفاق بها، ونظراً لخطورتها البيئية أصبحت تمثل حقوق ارتفاق عالمية وليست وطنية فحسب، لكنه تبين أن تركها مجالاً مشاعاً وحقاً مشتركاً للجميع للانتفاع بها عرضها للكثير من العدوان جرياً وراء المنافع الخاصة، كذلك فقد حرم الفقراء من الاستفادة بها، الأمر الذي جعل الفكر المعاصر ينادي بتحويلها إلى ملكيات خاصة خاضعة للعديد من الضوابط حرصاً على حمايتها وعدم استنزافها وحسن استغلالها، والبعض يرى ان تصبح ملكية عامة تتولى الدولة الاشراف الكامل عليها، وبذلك تضمن عدم الاعتداء عليها، وحتى ندرك أهمية المحافظة على الغابات من التدمير البشري نشير إلى أهمية الغابات كما وردت في هذه الفقرة «تشكل الغابات عنصراً متكاملأً من المحيط الحيوي اللازم لاستقرار المناخ العالمي، وإدارة المياه والأراضي، فهي مأوى لأنواع لا تحصى من النباتات والحيوانات التي تعد عناصر حيوية للمنظومات التي تدعم حياتنا بالإضافة إلى حياة الملايين من قاطني الغابات وهي توفر السلع للاستهلاك المباشر، وتوفر الأرض لانتاج الأغذية، وهي تمثل أيضاً رأس مال عندما تتحول إلى مأوى وبنية أساسية، وقد حدثت في السنوات الأخيرة زيادة خطيرة في إزالة الغابات بصورة مدمرة، وتظهر الدراسات الحديثة أن إزالة الغابات خاصة في المناطق المدارية قد ارتفعت إلى مايقدر بـ ١٧-٢٠ مليون هكتار سنوياً، وقد أدى سوء استخدام

والبيئة في منظورها الصحيح هي علاقة تناغم وتعاقد حيث بغير الحماية الكافية للبيئة تضار التنمية، وبغير التنمية تغدو الموارد قاصرة عن الوفاء باحتياجات الاستثمارات، وتنهـار عملية حماية البيئة^(١) ومستند هذه الحقيقة من الـوضوح بـمكان فلا تنمية إلا بـموارد، والـموارد جزء من البيئة فإذا لوثت أو استنزفت فعلى أي شيء تقوم التنمية؟ ولا بيئة سليمة صحيحة إلا من خلال استثمارات وأموال ورؤوس أموال انتاجية وبشرية. وكل ذلك رهين تحقق التنمية. وأخيراً فإن افتراض توفر الموارد لاشباع كل رغبات وتطلعات الإنسان مهما كان حجمها ومهما كانت نوعيتها هو افتراض خاطيء، ونضوب العديد من الموارد، من معادن ومياه وغابات وغير ذلك هو برهان قاطع على خطأ هذا الافتراض، وافتقاد مايزيد على المليار من البشر للحاجات الأساسية من مياه وصرف صحي وسكن وتعلم. . الخ ليؤكد على ذلك. ^(٢)

(ب) أهداف النمو وغاياته:

من المسلم به أن أهداف النمو الاقتصادي الوضعي، وبغض النظر عن أنماطه تمحورت حول الاكثار الـلامحدود من المنتجات والمقتنيات والممتلكات، حتى لقد قيل بحق أنه نمو للأشياء وليس نمواً للإنسان، أو هو نمو لذات النمو. وفي ذلك يقول قائلهم: «كل المجتمعات المتأثرة بـمدنية الغرب تتبع «توراة التنمية» كعقيدة، وتقول هذه «التوراة»: «انتجوا أكثر لكي تستهلكوا أكثر ثم لكي تنتجوا أكثر».

(١) تقرير التنمية في العالم ١٩٩٢ ص ١٤، ١١١، تقرير التنمية في العالم ١٩٩١ ص ٢٢.

(٢) نفس المصدر ١٩٩٢، ص ٢٢، ص ١٤٢.

كما أقام مؤسسة الخراج لتعامل بكفاءة، وفعالية مع القطاع الريفي^(١) الموطن الأكبر للفقر في العالم^(٢)، كما ان فقره مصدر تمويل كبير للفقر الحضري، حيث يهاجر الناس إلى المدن جرياً وراء لقمة العيش، فيولدون في حالات كثيرة ما يعرف بالفقر الحضري . وفي هذا وذاك نجد البيئة متدهورة والموارد ملوثة مستنزفة .

ومؤسسة الخراج سواء من حيث تشريع جبايتها أو تشريع انفاقها وسواء من حيث طبيعة ملكية الأراضي الزراعية وطبيعة حقوق الفلاحين عليها وحقوق الدولة . من هذه الحثيات المختلفة التي يضيق البحث هنا عن تناولها - ومن حسن الحظ أنها مبحوثة بتفصيل في مواطن أخرى - هي جديرة بعلاج قطاع الزراعة وما قد يستوطنه من فقر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن حقوق الدولة ومسؤوليتها حيال تلك الأراضي الزراعية يجعلها تنفق من حصيلة الخراج على الريف كل ما يحتاجه من متطلبات تنموية وبيئية .

فمن يعطل أرضه لا يقر على ذلك، ولو أدى الخراج حتى لا تصير الأرض مواتاً، ومن يستغلها بطريقة غير رشيدة لا يمكن من ذلك^(٣)، على الحكومة أن تسهم بفعالية في البنية الأساسية في الريف وفي الارشاد الزراعي الذي يولد تنمية وحماية للبيئة، وفي دعم الفلاحين بشتى صور

(١) د. شوقي دنيا، نفس المصدر، ص ٣٣٥-٣٧٦ .

(٢) اللجنة العالمية، مرجع سابق، ص ٣٥١ وما بعدها، مويرس غورنييه، مرجع سابق، ص ٦٦ .
M. Lipton, Why Poor? London: Timple simith, 1977, PP. 13-27.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٥٠، ابن القيم، أحكام أهل الذمة، نشر جامعة دمشق، ج ١، ص ١١٦، الكاساني، بدائع الصنائع، القاهرة، نشر: زكريا يوسف، ج ٢، ص ٩٤٦ .

ومع ذلك فما زال لهذا الهدف بريقه وله سحره وله نفوذه .

(ج) أدواته وأساليبه:

من المعروف أن عماد الاقتصاد الرأسمالي هو المشروع الخاص بينما عماد الاقتصاد الاشتراكي هو المشروع العام، ومن المعروف كذلك ان المشروع العام له مكانته اليوم في مختلف الاقتصاديات على تمايز مذهبها وتغاير مراحل تطورها ونموها .

وقد كان اختلاف التنظيمات الاقتصادية هذه مثاراً للجدل بين الاقتصاديين وغيرهم حول : من المسؤول الأول عن تدهور البيئة واحداث وتوليد هذه المشكلات البيئية المستفحلة أهو المشروع الخاص أم هو المشروع العام؟ . وحول هذا السؤال تنوعت مواقف العلماء ، هناك نفر قليل يرون أن المسؤول الأكبر هو المشروع الخاص^(١)، معتمدين في ذلك على طبيعة المشروع الخاص وأهدافه وطبيعة حساباته لتكاليفه وعوائده ، انه لا يهتم بالتكلفة التجارية الخاصة به والتي يتحملها هو بشكل مباشر وتمثل عبئاً محاسيباً وحقيقياً عليه ، كما أنه لا يدخل في حساب العوائد الا ما يعود عليه هو ويستفيد به شخصياً . ونظراً لكون «نوعية البيئة» غير داخلية في تلك الحسابات لا على مستوى التكلفة إن

(١) لمناقشة مفصلة لهذه المسألة يراجع :

رايلي ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ ، ٣٢٢ ، ٣٣٩ اللجنة العالمية ، مستقبلنا المشترك ، مرجع سابق ، ص ٢٩-٣٠ .

د . اساميل صبري ، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ص ١٤٩ وما بعدها .

د . فؤاد مرسي ، الرأسمالية تجدد نفسها «سلسلة عالم المعرفة» (١٤٧) ص ٧٧ وما بعدها .

دينيس غبور وامبرتو كولو ، الخروج من عصر التبذير ، التقرير الرابع لنادي روما ، ترجمة

عيسى عصفور ، دمشق : وزارة الثقافة ، ص ٢٠ . تقرير التنمية ١٩٩٢ ، ص ١٥٠ ، ١٦١

غوردن هيوز ، تنظيف البيئة في أوروبا الشرقية ، مجلة التمويل والتنمية ، سبتمبر ١٩٩٢ .

يأتي قوم من بعدهم يسدون من الإسلام مسداً وهم لا يجدون شيئاً، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم»^(١)، ونحن نعرف أن ظاهرة التفاوت الحاد في الدخول والثروات سواء على المستوى المحلي أو على المستوى العالمي وراء المزيد والمزيد من المشكلات البيئية الحادة^(٢).

ولعل مما تجدر الإشارة إليه في تلك التجربة أنها لم تغفل جانب التنمية أو جانب الكفاءة الاقتصادية لحساب جانب البيئة، فلقد كان في بؤرة الوعي مدى إمكانية قيام المسلمين الفاتحين باستغلال هذه الأراضي استغلالاً كفاءاً.

ولذلك كان يقول عمر عن أصحاب الأرض السابقين «هم أعلم بها وأقوى عليها»^(٣)

وقد كان، لقد دخلت هذه الأراضي في نطاق الملكية العامة، لكنها استغلت من قبل القطاع الخاص - الأفراد - نظير خراج يدفعونه بصفة دائمة للدولة للإنفاق منه على متطلبات القطاع الزراعي بوجه خاص والحاجات العامة بوجه عام.

معنى ذلك أنها لم تحاب الحاضر على حساب المستقبل كما أنها لم تحاب المستقبل على حساب الحاضر^(٤)، وبعبارة فنية فإنها اعتبرت معدل الخصم صفراً.

هذه المسألة ترينا كيف يكون دور الدولة في المجال الاقتصادي،

(١) نفس المصدر، ص ٨٣.

(٢) محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٦٠ وما بعدها.

(٣) أبو يوسف، الخراج، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٤) للإمام السرخسي في توضيح هذا الجانب تحليل دقيق، المبسوط، بيروت، دار المعرفة، ج ١٠، ص ٤٠.

انصياح المشروعات الخاصة . وقد مثل لذلك بعض الخبراء بالمثل الشعبي الشهير «حاميتها حراميتها»^(١) والذي نطمئن إليه أن كلا المشروعين أسهما في تدهور البيئة، لكن المشروع الخاص في المجتمعات الرأسمالية كان اسهامه أشد على المستوى العالمي وعلى مستوى العالم الثالث، بينما كان اسهام المشروع العام أشد على مستوى الدول الاشتراكية . وسواء أكان هذا أو ذاك فهما معا في حاجة إلى اصلاح وعلاج .

(د) التخلف الاقتصادي (عدم النمو) والمشكلات البيئية:

أدجنا هذه المسألة تحت العنوان الكبير النمو الاقتصادي ، لأنها داخله فيه فالتخلف ما هو إلا درجات متدنية من النمو والتقدم ، ثم إنه من ناحية أخرى ذو علاقة عضوية بالنمو، كذلك فإن الكثير مما يعزى إليه من إسهام في المشكلة البيئية هو في حقيقته من اسهام النمو وليس من اسهامه هو، ومهما يكن من أمر فلقد أثارت علاقة التخلف الاقتصادي بالبيئة خلال السنوات الأخيرة جدلاً محتدأ بين الاقتصاديين^(٢) فغالبية اقتصاديي العالم المتقدم بل وسياسييه يعتبرون التخلف الاقتصادي ، وخاصة من حيث ما يتسم به من تزايد سكاني كبير السبب الأساسي في تدهور البيئة إن على المستوى العالمي أو على مستوى البلاد المتخلفة . وعلى الطرف المقابل ينشط اقتصاديو العالم المتخلف في نفي هذه التهمة من جانب وإصاقها بالنمو الاقتصادي

(١) تقرير ١٩٩٢ ص ١٣٨ وانظر كذلك ص ١٧٦ ومابعداها .

(٢) اللجنة العالمية، مرجع سابق، ص ٦٣ ومابعداها، مورييس غورنيه، مرجع سابق، ص ٧٦ ومابعداها، جاك لوب، مرجع سابق، ص ١٥٦، مورالاييه، مرجع سابق، ص ٤٨ ومابعداها، د. رمزي زكي، المشكلة السكانية، عالم المعرفة (٨٤) ص ١٢٧، ومابعداها . تقرير التنمية ١٩٩٢، ص ٢٠، محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٤٨ ومابعداها .

عن حاجتها إلى ممارسة العملية الإنتاجية . وليس معنى ذلك أيضاً عدم تواجد ممتلكات عامة انتاجية . فلقد منح الإسلام الدولة حق ملكية بعض هذه الأموال مثل المعادن والطاقة ومثل بعض الأراضي الزراعية^(١) ، لكن التشريع الإسلامي في هذا النطاق قام بالفصل والتمييز الواضح بين مسألتين : الملكية والاستغلال ، وما أعظم مافعل ، باعتراف خبراء الاقتصاد المعاصرين ، إنه في بعض الحالات لا مناص من الملكية العامة حرصاً على إنجاز التنمية العادلة وعلى حماية البيئة ، لكنه ليس بالضرورة أن تدار وتستغل تلك الملكيات العامة من قبل الدولة مباشرة ، بل الأمر يتوقف على كفاءة الاستغلال وربحيته من المنظور القومي^(٢) ، والدولة ملزمة بتخير الأصلح للشعب بين أنماط الاستغلال ، سواء قام القطاع العام بذلك مباشرة أو قام القطاع الخاص بمهمة الاستغلال من خلال عقود المشاركة أو التأجير مثلاً . ومن الناحية العملية التطبيقية نجد الدولة في صدر الإسلام قد استخدمت كلا الأسلوبين ، فمثلاً في أرض خيبر دفعت الأرض لليهود ليزرعوها لأنهم أقدر على ذلك من المسلمين في هذا الوقت ، ثم بعد ذلك في أرض الصوافي^(٣) قامت الدولة في عهد عمر رضي الله عنه باستغلالها مباشرة ، وفي عهد عثمان رضي الله عنه اتضح أن قيام القطاع الخاص باستغلال تلك الأراضي أعلى من حيث

-
- (١) لمعرفة مفصلة : يراجع د . عبدالسلام العبادي ، الملكية في الشريعة الإسلامية ، مرجع سابق .
(٢) يحيى بن آدم ، الخراج ، بيروت ، دار المعرفة ، ص ٢٢ ، ٦٢ .
ابن راشد ، المقدمات ، بيروت ، دار صادر ، ص ٢٢٤ وما بعدها .
(٣) هي كل أرض فتحت وليس لها مالك بل إما قتل أو هرب أو كانت لكسرى وأهله أو كانت مغيب ماء أو آجام ، لمعرفة مفصلة : يراجع : د . أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٢ ، البلاذري فتوح البلدان ، ص ٣٨١ ، الطبري ، تاريخ الأمم ، ج ٤ ، ص ٢١ .
(٤) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، مكتبة الحلبي ، ص ١٩٣ ، وبهذا يكون سيدنا عثمان رضي الله عنه أول من قام بعملية التخصيص أو «الخصصة» في الاقتصاد الإسلامي ، مستخدماً في ذلك معيار العائد أو الكفاية ، وقد ثبت بالتجربة أو التخصيص قد صق هذا المعيار ، حيث أشارت المصادر إلى أن عائد الأرض تزايد بمقدار خمسة أضعاف ، الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٩٣ ، المقرئ ، ص ٩٦ ، ج ١ .

قدر مايستهلكه سكان المدن الفقيرة، كذلك تشير الاحصاءات إلى أن الفرد في أمريكا يلقي بأكثر من ٨٦٤ كجم زباله سنوياً^(١). يضاف إلى ذلك أن الكثير من المشكلات البيئية في ربوع العالم المتخلف منشؤها العالم المتقدم، فمثلاً مشكلة الاستنزاف للموارد وتدهور التربة ترجع عند المحققين إلى ممارسات الدول المتقدمة ممثلة في شركاتها العابرة للقارات بالدرجة الأولى^(٢). كذلك نجد جانباً كبيراً من تلوث سواحل وبحار الدول النامية وأراضيها راجع إلى قيام الدول المتقدمة بطرح نفاياتها السامة وفضلاتها الضارة في تلك البقاع. وهكذا علينا أن نفرق بين اغتيال البيئة في العالم المتخلف وبين كون التخلف هو القائم باغتيالها. كما علينا أن نعي بدقة أن السكان هم أهم مورد بيئي يجب أن يحافظ عليه وأن يهتم به، إذ من خلال ذلك فقط يستطيع هو بدوره أن يحافظ على بقية الموارد البيئية ويحميها من نفسه ومن غيره. ومعنى ذلك أن المسألة ترجع في النهاية إلى حتمية علاج التخلف بسياسات رشيدة تحمي البيئة في الوقت نفسه ولا تدمرها.

وقد رفع مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (١٩٧٢) شعار «إن الفقر أكبر ملوث للبيئة» وفي رأبي ان هذا الشعار صياغته غير دقيقة، حيث قد يفهم منه ان الفقر هو العامل الأكبر في تدهور البيئة، مع أنه في الحقيقة هو أبرز مظاهر عدوان البشر على البيئة، وجاء تعبير تقرير التنمية ١٩٩٢ أكثر دقة من حيث صياغته حيث يرى ان «الفقراء هم

(١) مجلة الاكسبريس الفرنسية بمناسبة انعقاد مؤتمر قمة الأرض، نقلاً عن جريدة الاهرام في عددها الصادر في ١٩٩٢/٦/٦.

(٢) لعرض مثير للغاية حيال هذه المسألة يراجع مورلايه، صناعة الجوع، مرجع سابق، ص ٤٨-٦٣.

(٣) ص ٢١.

ومن جهة أخرى حسن استخدامه ، هل المجتمع المتخلف يحافظ على أمواله وثرواته؟ ، وهل المجتمع المتقدم الذي لم يراع البيئة في تقدمه حافظ هو الآخر على أمواله وثرواته؟

معنى ذلك أننا مطالبون بتنمية رشيدة تقوم على سياسات سليمة تراعي مختلف العناصر، وتأخذ في الاعتبار كل المترتبات ، وبغير مراعاة ذلك في أعمال التنمية والانصراف وراء مجرد التكاثر المادي لايعتبرها الإسلام تنمية ولا تقدماً ، وإنما هي طغيان وعبث وفساد ، مصيره التدمير والاهلاك . يقول تعالى : ﴿ ارم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾^(١) وبغير محاكمة تمييزية لأهداف العمل الاقتصادي اللهم إلا التكاثر في حد ذاته «توراة النمو» يكون ذلك في نظر الإسلام هو العبث بعينه ، يقول تعالى : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾^(٢) .

وهكذا نجد التنمية في الإسلام تستهدف من الناحية الاقتصادية اشباع الحاجات الحقيقية للإنسان بغير اسراف وتخمّة ، وهي من هذا الوجه لا تتعارض على الاطلاق مع حماية البيئة والمحافظة عليها .
(ج) أدواته وأساليبه : ربما كان من أهم ماعلينا تناوله هنا هو

(١) سورة الفجر: الآيات رقم : ٦-١٣ .

(٢) سورة الشعراء . الآية رقم ١٢٨ . وقال في معناها المفسرون انهم كانوا يكثرون من البناء لمجرد التباهي بالمقدرة دون أن يكون وراء ذلك هدف صحيح ، فسمى ذلك النشاط عبثاً . قال البقاعي : « كانوا يبنون بكل مكان مرتفع علامة على شدتهم ، لأنه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعض الأراع دون كلها ، ولما كان اقامة الدليل على قوتهم بمثل ذلك قليل الجدوى قال تعبثون » نظم الدرر، مرجع سابق ، ج ١٤ ، ص ١٤ .

العرض وتسلسل الفكرة ، وفي فقرة لاحقة تتناول حماية البيئة وطرقها نتعرض عند ذلك لما يكمل موقف الإسلام . من البيئة .

لقد تبين لنا أن التنمية في مفهومها الوضعي لم تتواءم وتتسق مع حماية البيئة ، وإنما في غالب أعمالها كانت على حساب نوعية البيئة وصلاحياتها ، وقد رأينا أن ذلك يرجع - ضمن ما يرجع - إلى الفلسفة التي قام عليها النمو والمنطلقات التي ارتكز عليها ، كما يرجع إلى طبيعة النمو وأهدافه ثم إلى وسائله وأدواته وتنظيماته . نريد هنا أن نعرف من خلال تلك الزوايا طبيعة علاقة التنمية في مفهومها الإسلامي بالبيئة .

(أ) فلسفة التنمية : يمكن التعرف على ذلك من خلال تدبر بعض النصوص الإسلامية ، والتي منها هذه الآيات البينات . يقول تعالى : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾^(١) . في هذه الآية الكريمة نلاحظ (أولاً) تذليل الأرض لنا ، أي تهيئتها وتسخيرها وجعلها صالحة للاستخدام والاستفادة (ثانياً) الأمر بالمشي في مناكبها ، وليس المقصود بالمشي مجرد الظاهر ، وإنما ممارسة النشاط الاقتصادي الانتاجي والا فمجرد المشي بمفهومه المباشر قد لا يغني شيئاً في تمكين الإنسان من الأكل . (ثالثاً) طلب الأكل . والمقصود مطلق الانتفاع والاستفادة^(٢) . وتدبر بسيط في هذه الآية الكريمة وفي مكوناتها وفي نسقها يوضح لنا انه لتحقيق الحياة في الدنيا والتمتع بطبيعتها لا بد من توفر مقدمتين هما بيئة صالحة مهياة وتنمية . ومعنى ذلك أنه لا حياة بغير بيئة ، ولا حياة بغير تنمية ، ولا

(١) سورة المل : الآية رقم : ١٥ .

(٢) انظر د . شوقي دنيا ، الإسلام والتنمية الاقتصادية ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

مقدر موزون، يفي بحاجة الإنسان طالما كانت هذه الحاجات رشيدة وحقيقية، وطالما بذل الإنسان فيها جهده وسعيه وطالما التزم بالعدل والحق فيما بينه وبين نفسه وبين بني جنسه وبين بقية المخلوقات^(١). ومعنى ذلك أن افتراض الوفرة المطلقة بغض النظر عن أي ضابط أو افتراض الندرة المخيفة بغض النظر عن أي اعتبار، كل ذلك مخالف للمفهوم الإسلامي للبيئة من جهة وللتنمية من جهة أخرى.

(ب) طبيعة التنمية وأهدافها: من منظور علاقة التنمية بالبيئة أرى أن مفتاح المسألة يتمثل في كون الإسلام لم يطالب الإنسان بالتنمية بهذا المصطلح وتحت هذا العنوان، وإنما طالبه بذلك من خلال مصطلح أدق وأصلح هو مصطلح «عمارة الأرض أو عمارة الدنيا» قال تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾^(٢) أي طلب منكم عمارتها. ومن إحياءات هذا المصطلح التي يتميز بها عن مصطلح «التنمية» أنه ينطوي على تنمية الإنسان والأرض معاً، ماذا تفهم من عمارة الدنيا؟ أيرد على الذهن التخلف الاقتصادي؟ أم يرد على الذهن إفساد الأرض وتلوثها؟ إن التنمية الاقتصادية بمفردها خاصة إذا ماجرت وراء الكثرة والتكاثر قد تخرب الأرض ولا تعمرها، كما ان عدم التنمية كلية لا يحقق عمارة الأرض، حيث ترك الإنسان العمل، والعمارة عمل وجهد.

ثم إن الإسلام ينشد للإنسان في الدنيا «الحياة الطيبة» وطيب الحياة

(١) لمزيد من المعرفة بهذا الموضوع القائمة على أمهات كتب التفسير يمكن الرجوع إلى د. شوقي دنيا، الاقتصاد الإسلامي هو البديل الصالح، مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، (١٠٦).

(٢) سورة هود: الآية رقم: ٦١. وفي تفسيرها يراجع الجصاص، أحكام القرآن حيث يقول: في الآية دلالة على وجوب عمارة الأرض بالزراعة والغرس والأبنية، قارن القرطبي، الجامع لأحكام القرآن.

الأرض «البيئة» لا غنى للإنسان عنها، فمنها يأكل ويشرب ويلبس وعليها ينتقل . كما ان هذه البيئة تحتاج كي تخرج منافعها وثمارها إلى جهد الإنسان وعمله ، فعليه ان يزرع وأن يربي الماشية وأن يغرس الأشجار وأن يصنع الآلات اللازمة لكل ذلك ومنها السفن ، وان يغوص في أعماق البحار وأن يصطاد السمك اللحم الطري . ومعنى هذا كله أننا أمام ملحمة رائعة تتفاعل فيها البيئة والتنمية معاً مكونة للإنسان حياته الطيبة ، وما يلفت النظر في هذه الآيات الكريمة أنها ختمت بقوله تعالى ﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .﴾ وكذلك الآيات الشبيهة بها في مواطن متفرقة من القرآن الكريم نجدتها تختم بمثل هذا التذييل حيث يشار إلى النعم ، والمعروف أن النعمة من التمتع ، ومعنى ذلك ان هذه المخلوقات وبهذه الكيفية إنما هي مصدر تنعم الإنسان ورغده . ومن ثم فإن زوالها أو إنهاكها أو إفسادها هو إفساد لمصدر سعادة الإنسان الدنيوية وطيب حياته . وأخيراً نتدبر هذه الآيات الكريمة ، يقول تعالى : ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(١) . ويقول تعالى : ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون﴾^(٢) ويقول تعالى : ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين﴾^(٣)

نجد هذه الآيات الكريمة تنص على أن ما في الأرض من عناصر

(١) سورة الحجر . الآية رقم : ١٩-٢١ .

(٢) سورة المؤمنون الآية رقم : ١٨ .

(٣) سورة فصلت ، الآية رقم : ١٠ .

تنمية بغير بيئة . فإذا ماجاء الإنسان وقام بأعمال إنائية ترتب عليها
إفساد البيئة ، فإن استمرارية قيامه بالتنمية محكوم عليها بالعدم لفقدان
ركن من أركانها . نعود لآيات أخرى يقول تعالى : ﴿والأنعام خلقها لكم
فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين
تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن
ربكم لرءوف رحيم . والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق
ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم
أجمعين . وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه
تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل
الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم
يعقلون . وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم
يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه
حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم
تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا
تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾^(١) هذه
الصورة القرآنية الرائعة يرىنا الله عز وجل من خلالها كيف أن الأرض بما
فيها وما عليها من دواب ومياه وأنهار وبحار وجبال وسهول وشمس
وقمر ، كل ذلك خلق من أجل الإنسان ، وسخره الله تعالى لخدمته
والانتفاع به ومنه ، ودلالة ذلك البيئة البالغة الأهمية في موضوعنا ان هذه

(١) سورة النحل الآيات رقم ٥- ١٨ .

يقوم على توليفة من العناصر المادية والمعنوية ، من أهمها رغد العيش والأمن والاطمئنان يقول تعالى : ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾^(١) ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئة يأتها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾^(٢).

ومعنى ذلك ان الإسلام يرفض اعتماد مجرد الوفرة المادية هدفاً وحيداً للتنمية ، ومعنى ذلك أيضاً أن الإنسان عليه ان يرفض اعتماد مجرد الوفرة المادية هدفاً وحيداً للتنمية ، ومعنى ذلك أيضاً أن الإنسان عليه ان يتغيا تحقيق الأمن والاطمئنان وتحقيق الرغد والرخاء على كل المستويات ولكل الأفراد ولكل الأجيال . لقد تعلمنا ان مقصود الشريعة المحافظة على مقومات الإنسان الخمس ، الدين والنفس والعقل والنسل والمال .^(٣) وبالتأمل نجد المحافظة على تلك المقومات لا تتأتى إلا من خلال بيئة وتنمية ، أو بعبارة أخرى من خلال تنمية رشيدة تحسب حساب البيئة وتقومها بقيمتها الحقيقية وليس بثمن بخس مثل ماتم في التجربة الغربية للتنمية . ولعلك تلاحظ معي أن من ضمن هذه المقومات الخمس المال ، ومفهوم المال هنا يشمل كل ما على الأرض مما يحتاجه الإنسان^(٤) . والمحافظة عليه تتطلب من جهة عدم تركه معطلاً ،

(١) سورة النحل . الآية رقم : ٩٧ .

(٢) سورة النحل . الآية رقم : ١١٢ .

(٣) الغزالي ، احياء علوم الدين ، بيروت : دار المعرفة ، ج ٤ ص ١٩ ، الشاطبي ، الموافقات ، دار المعرفة ، ج ٢ ص ١٠ .

(٤) الغزالي ، نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٢٧ .

ضحايا الاضرار بالبيئة كما أنهم عناصر فاعلة فيها»^(٣).

وهكذا نجد العامل الاقتصادي قد أسهم إلى حد كبير في المشكلات البيئية المستفحلة في عالم اليوم، وأن معظم هذه المشكلات نتجت عن نمط النمو الاقتصادي الذي تحقق في عالمنا المعاصر.

وتجدر الإشارة هنا إلى ان النمو الاقتصادي القائم كان ذا أثر مزدوج على البيئة، فكان له أثره الايجابي كما كان له أثره السلبي، ونحن إذ نركز على الأثر السلبي له فليس معنى ذلك انه لم يكن له أثر على حماية البيئة وإلا ما ظنك لو كان كل العالم حالياً متخلفاً اقتصادياً ماذا كان يحدث للبيئة؟؟؟ إن النمو بغير شك حسن الكثير من مظاهرها وحافظ على الكثير من عناصرها، وما يؤخذ عليه في ذلك أنه كان بوسعه وفي إمكانه أن يتلافى الكثير من المضار التي ألحقها بالبيئة لو رشد بعض الشيء من أهدافه ووسائله بل لقد كان بإمكانه لو اتخذ سياسات اقتصادية جيدة تدخل العامل البيئي في صلبها أن يحسن البيئة بدلاً من أن يتلفها، وبذلك كان قد حقق للإنسان هدفه معاً، انجاز التنمية والمحافظة على البيئة. وقد أخذ الآن يعيد حساباته ويقرب رويداً من الطريق الصواب^(١).

ثانياً : النمو الاقتصادي في مفهومه الإسلامي والمشكلة البيئية:

في هذه الفقرة نكتفي بعرض المفهوم الإسلامي للتنمية بنفس النسق الذي سرنا عليه في تناول المفهوم الوضعي لها، حرصاً على اتساق

(١) لمزيد من المعرفة يراجع تقرير ١٩٩٢ الخاص كله بالتنمية والبيئة.

التعرف على الأساليب التي ارتضاها الإسلام لإنجاز التنمية، والأداة الأساسية التي تقوم عليها. وهل هو الأسلوب الخاص أم الأسلوب العام أم هما معاً؟ هل اعتمد الاقتصاد الإسلامي نظام المشروع الخاص أم نظام المشروع العام؟ كذلك التعرف على الموقف الاقتصادي الإسلامي حيال قضايا الفقر والريف والأموال المشتركة مثل الغابات والأرض الموات، لما لذلك من علاقة وثيقة بموضوع البيئة.

يمكن القول إن الاقتصاد الإسلامي قد اسند مسؤولية التنمية الاقتصادية إلى كل من الأفراد والدولة على السواء. مع تحديد الأدوار والمجالات بوضوح كبير، فمثلاً نجد مهمة إقامة المشروعات الاقتصادية الإنتاجية تكاد تقع كلية على عاتق القطاع الخاص، ملكية وإدارة، وإبعاد الدولة بوجه عام عن مزاحمة القطاع في تلك المجالات^(١)، وليس معنى ذلك تقليل دور الدولة الاقتصادي، وإنما هو بالدرجة الأولى حسن توزيع للمهام والأدوار، والمعروف أن المجال الاقتصادي لا يقف عند حد الممارسة العملية الانتاجية ممارسة فعلية، إنه يتطلب توفر المناخ الجيد والبيئة السليمة من نظم وسياسات وتشريعات... الخ، وهنا تقع المهمة على كاهل الدولة، حيث لا يستطيع الأفراد كل على حدة توفير تلك المتطلبات الجوهرية العامة، والتي لا تقل حاجة التنمية إليها

(١) يراجع في ذلك ابن تيمية، السياسة الشرعية، القاهرة: المطبعة السلفية. الماوري، قوانين الوزارة، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ص ٦٧. الدمشقي، الاشارة إلى محاسن التجارة، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٦١. ابن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص ٢٨١، ٢٨٢.

ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج ١ ص ٢٠٨.

المتحقق في العالم المتقدم من جانب آخر. وخلال حقبة من الزمن تاهت الحقيقة وتضاءل العمل الفعال من جراء هذا الصراع الذي لا يستند في كثير من جنباته إلى تبريرات مقبولة. والحمد لله لقد تحسن الموقف كثيراً حالياً وأدرك الطرفان ما كانا عليه من جنوح ومبالغة. ونأمل أن يتحسن الموقف أكثر خاصة من قبل الدول المتقدمة. ومما لاشك فيه أن للتخلف وطأته الثقيلة على البيئة ويوم يجد الإنسان أو المجتمع نفسه أمام إشباع الحاجة الأساسية العاجلة أو الاحتفاظ ببيئة نظيفة ذات نوعية عالية الجودة فلاشك أنه سينحاز إلى إشباع حاجاته الأساسية^(١). ان الفقر يشدد الضغط على البيئة ويجبر الناس على الاستخدام قصير الأجل للموارد، كما يجبرهم على أحداث المزيد من تلوث الهواء والماء، وعلى استنزاف التربة كما قد يجبرهم على تركها معطلة. ومعنى ذلك ان هناك ما يعرف «بتلوث التخلف» كما كان هناك ما يعرف بتلوث النمو. وبتعبير أشمل نجد هناك اعتداءات التخلف على البيئة كما نجد اعتداءات النمو عليها. ومع ذلك فإنه من باب الموضوعية القول بأن اعتداءات التخلف على البيئة ليست عدوانية وإنما هي عفوية أو اضطرارية كما تضطر القطة إلى أكل ولدها عند الجوع مثلاً، لكن اعتداءات النمو هي اعتداءات عدوانية، مقصودة ومتعمدة، ولم تحمل عليها الضرورة، وكان بالوسع تجنبها أو تجنب الكثير منها. ومن جهة أخرى فإن ضغط التزايد السكاني على البيئة لو نظرنا للبيئة العالمية هو أقل بكثير من ضغط الانفجار الاستهلاكي في العالم المتقدم اقتصادياً، فمثلاً نجد سكان المدن الغنية يستهلكون من المياه في المتوسط ١٢ مرة

(١) محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٣٥.

الكفاءة الاقتصادية فدفعها إلى الأفراد^(٤). ومادار في عهد عمر رضي الله عنه باتجاه أراضي الفتوح الإسلامية من حيث تملكها واستغلالها يعتبر تجربة رائعة من جهة ومفيدة كل الافادة في موضوع علاقة التنمية بالبيئة من جهة أخرى .

ونشير إلى تلك التجربة في بضعة سطور^(١)، لقد رفضت الدولة تقسيم هذه الأراضي بين الفاتحين، أي أنها رفضت جعلها داخل نطاق الملكية الخاصة وأدخلتها في نطاق الملكية العامة للمسلمين على اختلاف أماكنهم واختلاف أزمانهم، ومع كثرة الأدلة والاعتبارات والحجيات التي استندت إليها الدولة في موقفها هذا لكن الذي يعيننا هنا أن مسألة خضوع هذا الأصل الطبيعي المنتج للملكية كل المسلمين على مر العصور كانت بارزة تماماً، وهذا يذكرنا بتجني التنمية المعاصرة على حقوق الأجيال القادمة من خلال ماتغرز من تلوث لهذه الأوصول وتدمير واستنزاف لها . يقول عمر في ذلك : «لولا آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها»^(٢) «فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه»^(٣)، وقد برزت بجلاء مسألة التفاوت الحاد في الثروات وإيجاد ظاهرة اللامساواة المفرطة وكانت هي الأخرى وراء هذا الموقف للدولة .

يقول معاذ لعمر: «إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي نفر قليل، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد والمرأة الواحدة، ثم

(١) لمزيد من المعرفة يراجع د. شوقي دنيا، الإسلام والتنمية الاقتصادية، مرجع سابق، ص ٣٣٦-٣٤٧.

(٢) أبوعبيد، الأموال، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٨٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٨١.

كانت نوعية سيئة ولا على مستوى العائد إن كانت نوعية طيبة، حيث المتحمل لها هو غيره، المجتمع، البيئة المحيطة، العالم والمستفيد منها كذلك هو غيره. لذا فإنه لا يعني بها، ومن ثم فإنه أشد فتكاً للبيئة حيث لا يتحمل عبء ما يفسد، ولذلك نراه يلقي بفضلاته ونفاياته الضارة المفسدة في المياه فيلوثها وفي الهواء فيلوثه وفي الطرقات والساحات، كما نراه يستنزف من الموارد - المجانية - ماشاء له ان يستنزف منها، كذلك نراه يحرص الحرص كل الحرص على استخدام المواد الرخيصة مهما كان فيها من ضرر بيئي وكذلك الآلات الرخيصة طالما أن تكلفتها قليلة غير عابئ بما تحدثه من دمار بيئي.

ونظراً لأن المشروع العام لا يستهدف المزيد من الأرباح بمفهومها التجاري الخاص، ونظراً لأنه يعني أساساً بالمصلحة العامة والتي من بنودها الأساسية نوعية البيئة فإنه أقل عدواناً على البيئة واجهاداً لها. هذا على المستوى النظري بينما الواقع العملي يعاكس ذلك كثيراً حيث أثبتت الدراسات الميدانية أن المشروعات العامة سواء في الاقتصاديات الاشتراكية أو في الاقتصاديات الرأسمالية لا تقل على البيئة من المشروعات الخاصة، بل هي في غالب الأمر أشد فتكاً بها.

وفي ضوء هذه النتائج العملية الدامغة نرانا لا نوافق الرأي النظري السابق، لأنه وان اعتمد على حيثية معقولة غير أنه قد نسي حيثيات أخرى قد تكون أكثر تأثيراً في الموقف، ومن ذلك غيبة المنافسة في المشروعات العامة، وغيبة المساءلة الجادة، وعدم الاهتمام الكافي بعنصر التكلفة والحرص على ترشيده، كما أنها من خلال تلك الاعتبارات ومن خلال كونها ملكاً للدولة تتأبى كثيراً على المتطلبات البيئية ولا تنصاع لها

وترينا من جهة أخرى كيف يكون لازماً عليها انتهاج السياسة التي تحقق أكبر قدر ممكن من المصلحة للشعب، وترينا من جهة ثالثة كيف جذبت الاستغلال الخاص للملكية العامة الزراعية .

خلاصة القول : إن الدولة في الإسلام مسؤولة عن حماية البيئة وعن تهيئة الجو المناسب لقيام الأفراد بممارسة النشاط التنموي الكفء من جهة والمحافظة على البيئة من جهة أخرى^(١) . وفي فقرة لاحقة سنزيد هذه المسألة بياناً .

أما عن مشكلة الفقر والعوامل التي تؤدي إلى تواجد تفاوت في توزيع الدخول والثروات وما يحدثه كل ذلك من إجهاد للبيئة واستنزاف وتلويث لها ، بحيث اعتبر أي كلام عن حماية البيئة في ظل تفشي هذه الوضعية هو من باب العبث ولغو الحديث .

فلقد كان للإسلام موقفه الواضح حيالها ، والاستطراد وراء تبيان ذلك الموقف من جوانبه المختلفة يخرجنا عن مقصدنا .

ويكفي هنا أن نشير إلى بعض المؤسسات التي أقامها الإسلام لتسهم في علاج هذه الظاهرة المرضية لقد أقام مؤسسة الزكاة ، وهي تفعل فعلها في تتبع وملاحقة الفقر أينما كان ، ويقوم تشريعها على أنه حيثما وجد الغني فعليه أن يعالج ماحوله من جيوب الفقر^(٢) .

(١) لمزيد من المعرفة يراجع : د. شوقي دنيا ، دور الدولة في التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي ، بحث مقدم لندوة التنمية من منظور إسلامي ، المنعقدة في الأردن بمؤسسة آل البيت في رجب ١٤١١ هـ .

(٢) لقراءة مفصلة يمكن الرجوع إلى الدكتور د. يوسف القرضاوي ، فقه الزكاة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة . د. شوقي دنيا ، تمويل التنمية في الاقتصاد الإسلامي ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧-٢٩١ .

ولا يحتاج الإنسان أن يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه فلسفة مريضة مجنونة»^(١). ثم يقول: «نحن لا نتردد في تحريب بيئتنا وصلاتنا الإنسانية من أجل القدرة على امتلاك السلطة والمال»^(٢) ويذكر المؤرخ البريطاني الشهير توينبي «أن انسان الغرب قد عرض نفسه لخطر خسران ذاته حين كرس جهوده لزيادة رخائه المادي»^(٣).

ومما يؤسف له أن معيار النمو الذي ظل سائداً ومسيطرًا لعقود عديدة وما زالت له مكانته هو مقدار دخل الفرد، ومعنى ذلك مقدار ما يمتلكه الفرد من سلع وخدمات، وكلما زاد ماله فيه كلما كان أكثر نمواً، هذا المعيار في حاجة إلى تشذيب وتهذيب وإلا فهو بذاته يمكن أن يكون مؤشراً على تدهور البيئة، وليس في ذلك غرابة طالما كانت سياسات التنمية السابقة وأيضاً الحاضرة إلى حد كبير تقوم على انهاك البيئة واهلاكها، إذ معنى ذلك أنه كلما تحقق النجاح هنا تحقق التدهور هناك^(٤). من أجل هذا أو غيره أخذ الفكر الاقتصادي الانمائي المعاصر يعدل ولو بشكل جزئي من موقفه حيال أهداف التنمية وغاياتها ويخفف كثيراً من وحدانية هدف الرخاء المادي غير المحدود، ويقدم بدلاً من ذلك هدفاً كلياً مركباً من عدة عناصر من بينها هدف الرخاء هذا^(٥).

(١) دوبر، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٦، قارن مورلايه، صناعة الجوع، ترجمة أحمد احسان، عالم المعرفة

(٦٤) ص ٣٩٧.

(٣) انظر مختصر التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ج٤ ص ٢٢٣

وانظر كذلك أريك فروم، مرجع سابق، ص ٧٤ وما بعدها.

د. محمد عمر شبرا، نمو نظام نقدي عادل، ترجمة سيد سكر، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ٢٩.

Joseph J. Senec & Michael K. Toussing, Environmental Economics, N.Jersey: Prentice-Hall, INC., Englewood CLIFFs, 1979, P. 139FF.

(٤) مستقبلنا المشترك، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

M.P. Todaro, The Theory of Economic Development in The Tird (٢) world, N. York: longman Inc., 1977, PP. 60-64.

الدعم خاصة من حيث تأمين المياه وحين توزيعها وحسن استخدامها، ولقد بلغ التشريع الإسلامي ذروة الحق والعدل والقوة عندما صرح بأن إهمال الدولة في القيام بذلك يسقط حقها في جباية الخراج^(١).

وهل هناك أبلغ من هذه الأقوال دلالة على أهمية الريف والمحافظة عليه وعلى أصوله الطبيعية والانتاجية «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله»^(٢).

أما عن التنظيم الاقتصادي للملكية واستغلال الغابات والمراعي والأرض الموات، فإن أهمية هذا الموضوع تبدو من نواح عدة، فغير خاف مدى أهمية الغابات كعنصر بارز من عناصر النظام البيئي لما لها من آثار متعددة بالغة الأهمية من حيث توازن المناخ وتماسك التربة وعدم انجرافها وزوالها، وكذلك توازن واستقامة دورة المياه وغير ذلك ثم انها من ناحية أخرى تشبع حاجات أساسية لا غنى للإنسان ولا لتقدمه عنها مثل المنتجات الخشبية والوقود.

والمشكلة هنا أنه بقدر ما هو ضروري الإبقاء على الغابات والحفاظ عليها بقدر ما هو ضروري استخدامها في أغراض قد تتعارض مع الإبقاء عليها، ويكفي أن نعلم أنها تجتث حالياً وبمعدلات رهيبة مدمرة لأغراض عديدة من بينها تحويل مكانها إلى أراض زراعية تنتج للإنسان ما يحتاجه من حبوب.

وقريباً من تلك الصورة نجد المراعي، فوجودها أساس لأغراض

(١) الماوردي، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، بيروت، دار المعرفة، ج ٣، ص ٩٦. وهذه الفقرة جزء من رسالة الإمام على عندما كان خليفة، لنائبه على حكم مصر الأشتر النخعي.

كلية على الإنسان فهو الوسيلة وهو الهدف وهو كل شيء في العملية الإنشائية وما على البيئة إلا الانفعال والاستجابة والطاعة المطلقة لكل ما يريده الإنسان .

وقد ترتب على هذا الفهم المنحرف نتائج عملية ذات أهمية فيما يتعلق بالبيئة حيث لم يهتم بها وبصلاحيتها وبالمحافظة عليها الاهتمام الكافي عند إنجاز عملية التنمية . كما قد فهم أن العلاقة بين النمو والبيئة هي علاقة تعارض (Trade OFF) فإما نمو على حساب البيئة وإما بيئة على حساب النمو^(١) . وقد انحاز الإنسان الغربي ناحية النمو، لأنه يحقق له مطالبه العاجلة من جهة، ولأن ما قد يحدثه من مشكلات بيئية سرعان ما يزول عندما ينجز النمو من جهة أخرى . وأخيراً فقد قام النمو الاقتصادي من الناحية العملية على أساس أن الموارد الطبيعية وفيرة، وقادرة على أن تشبع للإنسان كل رغباته وأن غلت واشتطت^(٢) . مما ترتب عليه المزيد من الاستنزاف والمزيد من نهب هذه الموارد، ومن ثم إفناء الكثير منها . وما يؤسف له أن كل هذه الافتراضات كانت خاطئة . فالنمو أو التنمية من حيث الجوهر والحقيقة عملية مركبة من عنصرين أساسيين، الإنسان والبيئة، وكلاهما عنصر إيجابي وفعال، وصلاحية كل منهما شرط ضروري لانجاز التنمية . كما قد ثبت أن العلاقة بين التنمية

(١) المزيد من المعرفة يراجع أندروسيتر، تسخير البيئة لأغراض التنمية، مجلة التمويل والتنمية، سبتمبر سنة ١٩٩٢ .

موريس غورنيه، مرجع سابق، ص ٧٦، محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٣٥، ومن الأدلة الدامغة على ذلك في التاريخ الاقتصادي الغربي الحديث مرحلة «المصانع الشيطانية المظلمة للنمو الصناعي، والتي لاتزال آثاره ظاهرة في مناطق كثيرة من أوروبا انظر: تقرير التنمية ١٩٩٢ ص ١٥٨ .

(٢) تقرير ١٩٩٢ ص ٢٠، د. محمد عوض الله، مرجع سابق، ص ٥٧، جون د. شيلينغ، تأملات في الديون والبيئة، مجلة التمويل والتنمية، يونيه ١٩٩٢ .

الغابات بالفعل إلى تكاليف اجتماعية واقتصادية وبيئية جمة . ويشير فقد الغابات المدارية القلق الشديد حيث توفر موائل لأكثر من ٥٠٪ من أنواع الغابات والحيوانات بالعالم ، وتولد المواد الوراثية للغذاء والدواء وتؤثر في المناخ الاقليمي والعالمي»^(١).

والإسلام يرى - كما نفهم - أن هذه الأموال هي حق أو ملك لعامة المسلمين أو لعامة المواطنين ، لكل له فيها حق لا يضيع ، فالناس شركاء في الماء والكلا والنار ، والغابات والمراعي تدخل في ذلك كما لا يخفى^(٢).

فمن حيث الحق هي حق للجميع ، ولكن التساؤل هو كيف تنظم هذه الحقوق وكيف يحصل الناس عليها؟ هل تترك هكذا كل من يحتاج شيئاً منها يأخذه؟ القاعدة الكلية هنا هو التصرف بما فيه مصلحة المسلمين ، عامتهم من جانب وأجيالهم من جانب آخر، إذاً هي ميراث مشترك دائم لكل جيل الحق فيه ، وفي ضوء ذلك فإن تنظيم الاستفادة بها يدور مع هذه القاعدة ، فإذا كان تركها هكذا ، ومن يريد شيئاً يأخذه يحقق هذه المصلحة على أفضل وضع فليكن أمرها هكذا ، وإذا كان مثل هذا الأسلوب لا يحقق هذه المصلحة على الوجه الأمثل كأن يترتب على ذلك حرمان بعض الأفراد أو الفئات أو حرمان الأجيال القادمة فلا يصح شرعاً استخدامه ، واليوم وفي ظل تفاوت القوى وفي ظل الآلات المتقدمة وفي ظل الحاجات المتزايدة نجد أن تركها هكذا هو أسلوب

(١) ن. شارماور. روى ، إدارة غابات العالم ، مجلة التمويل والتنمية ، يونيو ١٩٩٢ . قارن تقرير ٩٢ ص ١٦٥ ومابعد ، وانظر كذلك . ك. كليفروغ . شراير ، السكان والزراعة والبيئة في افريقيا ، مجلة التمويل والتنمية ، يونيو ١٩٩٢ م .

(٢) الصاوي ، حاشية الصاوي ، مكتبة الحلبي ، ص ٤٦١ ، ج ١ ، محمد باقر الصدر ، اقتصادنا ، بيروت ، دار الفكر ، ص ٤٤٠ ، ج ٢ .

بحسن الوسيلة نفس المطالبة بحسن الغاية ، وعناية الإسلام بالوسائل والطرق والأساليب لا تقل عن عنايته بالغايات والمقاصد . بل إنه ليرى في حالة تعذر تحقيق الغاية إلا بوسيلة ضارة وغير حسنة صرف النظر عن تلك الغاية مع ما قد يكون فيها من نبل . والوله بالعلم ليس عيباً ولا محظوراً إسلامياً ، بل على العكس من ذلك هو أمر محب ومطلوب . لكننا نفرق بين محبة العلم وعبادته ، ونفرق بين علم نافع وعلم ضار . الإسلام لا يرى كل علم نافعا ، بل منه النافع ومنه الضار . وهو يحرص الحرص كله على العلم النافع ، ويحذر التحذير كله من العلم الضار . يقول ﷺ «أعوذ بك من علم لا ينفع» وقد نص القرآن على أن الإنسان أحياناً ما يتعلم العلم الضار ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾^(١) .

لذلك لابد من وضع ضوابط صارمة ورشيدة لعملية البحث العلمي أو على حد تعبير دوبو «الضبط الاجتماعي للتكنولوجيا»^(٢) بحيث ينصرف إلى المجالات المفيدة حقاً ، وإلا كان في بعض حالاته اهدارا للطاقة البشرية من جهة وللمال العام من جهة أخرى ومولداً للمزيد من المضار المتولدة عنه من جهة ثالثة .

٤/٣ - العامل الاقتصادي: (النمو الاقتصادي في قفص الادانة):

لا خلاف بين جمهور الباحثين حول ضخامة الأثر الذي رتبته العامل الاقتصادي وأحدثه في البيئة انهاكاً وتدهوراً ، بل انهم ليعتبرونه المسؤول الأول عن هذا التدهور البيئي .

(١) سورة البقرة . الآية رقم : ١٠٢ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٢٦٨ .

حق الجميع وفي هذا ضمانة قوية كي لا تنحرف الدولة في استخدامها، إذ ليس من حقها ذلك، فهي بمثابة طرق المسلمين وأنهارهم. يقول أبويوسف: «ولا ينبغي لأحد أن يحدث شيئاً في طريق المسلمين بما يضرهم، ولا يجوز للإمام أن يقطع طريقاً من طرق المسلمين الجادة رجلاً يبني عليه، وللعمامة طريق غير ذلك قريب أو بعيد منه لم يسعه اقطاع ذلك ولم يحل له وهو آثم إن فعل ذلك»^(١).

(١) الخراج، ص ٩٣، مرجع سابق.

موضوع ملاحظته عن السياق العضوي الكلي الذي يحيا فيه هذا الموضوع، إذ لابد لقياس الفراشة من فصلها عن بيئتها، ولقياس طول جناحها لا مناص من فصل الجناح عن الجسم - نظرياً على الأقل - ولابد لفهم أجزاء أية عملية طبيعية من التغاضي عن الكل . والمعرفة العلمية تتضاعف بقدر ما نستطيع تحليل الأشياء إلى أجزائها المركبة . وقدرة التكنولوجيا على صنع الآلات رهينة استيعابها لكيفية أداء الآلات الحية لوظائفها . ومن هنا فربما لم يكن من المستغرب أن يقوم التكنيك العلمي الذي يعامل الكائنات الحية وكأنها ميتة بخلق تكنولوجيا تفتك بهذه الكائنات»^(١) .

أما المجال الثاني المتعلق بالوله بالعلم ومبتكراته فهو ليس ببعيد عما قلنا ، حالاً، كما أنه قضية مسلم بها على الأقل في فترات طويلة مضت في حياة الحضارة الغربية . والحق أنه قد جددت في عصرنا الحاضر بعض المراجعات القوية والجادة في هذا الموضوع لكن هذا لا ينفي رسوخ نزعة العلم المسيطر والمهيمن ، وشدة اللذة المتحصلة من انتصار العلم في اخضاع الطبيعة بل في قهرها واغتصابها ، وما زالت فكرة تأليه العلم قائمة لدى الغربيين^(٢) .

ومن باب الانصاف القول بأن التكنولوجيا القديمة «تكنولوجيا القرن التاسع عشر» كانت مدمرة للبيئة بقسوة بينما التكنولوجيا الحديثة ، تكنولوجيا القرن العشرين «ولدت آثاراً حميدة أو على الأقل ولدت آثاراً أقل عدواناً على البيئة في جوانب كثيرة منها ، وإن كان لها على الجانب

(١) رايلي ، مرجع سابق ، ص ٣٢٩ ، قارن دبو ، مرجع سابق ، ص ٢٥٤ .
(٢) ج . سوليفان ، العلم في مواجهة المادية ، ترجمة د . عماد خليل ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

٥- آثار الإفساد في الأرض «الاعتداء على البيئة»:

يمكن أن يقال ان الأثر المباشر لهذا العدوان هو تدهور البيئة وفسادها، بدرجة أو بأخرى، حسب جسامة الاعتداء وامتداده، وقد سبق أن عرفنا أن البيئة بحسب الأصل صالحة، وأن صلاحيتها من القوة بحيث لا تنهار عند أي اعتداء، لكنها مع ذلك ومع قسوة الاعتداءات وشيوعها واستمراريتها فإن درجة صلاحية البيئة تقل رويداً رويداً، ومعنى تدهور البيئة عدم قدرتها على مد الإنسان بما يحتاجه ومالا يستغنى عنه لا في حياته ولا في رفاهيته، وإذا فُفسد البيئة هو فساد بالتالي وبالضرورة للإنسان نفسه، وهكذا نجد الأثر النهائي للإفساد في الأرض أو الاعتداء على البيئة هو اتلاف واضرار للإنسان ذاته في مقومات حياته المختلفة. وصدق الله العظيم إذ يختم آية ظهور الفساد في الأرض بقوله ﴿ليديقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ فالأثر السلبي يستقر في النهاية على الإنسان^(١).

كما يمكن أن يقال أن جوانب ومظاهر الافساد في الأرض هي نفسها بمنظور آخر آثار ومتربات، فالتلوث جانب ومظهر من مظاهر الإفساد وهو في ذات الوقت أثر من آثار هذا السلوك المنحرف وكذلك التدمير والاستنزاف والتعطيل.

وفيما يلي نعرض بإجمال كبير للآثار غير الإقتصادية ثم نعرض بتفصيل إلى حد ملائم للآثار الاقتصادية ١/٥ الآثار غير الاقتصادية: لا يخفى على مطلع مدى ما يصيب الإنسان نفسه في صحته وفي فكره وفي

(١) البقاعي، مرجع سابق، ص ١٠٤ ج ١٥، معاني القرآن، مرجع سابق، ص ٢٦٦ ج ٥.

أهمية الأرض بالنسبة لحياته ووظيفته؟ أي دين جديد بعد هذا كله تريده أوروبا أو يريد من هم على درجة من الوعي من أبنائها؟ وما الذي ييغون تحقيقه أكثر مما قدمه الإسلام في هذا المجال^(٢)؟ انه التخبط والتعصب والاستعلاء ليس إلا، وهذه السمات أبعد ما تكون عن العلمية التي يتشدقون بها. والعجيب في الموضوع ان هذا الكتاب رغم أهميته ورغم ما فيه ورغم ذكره الصريح لكل من اليهودية والمسيحية إلا أنه لم يذكر كلمة الإسلام ولو مرة واحدة. هل هو الجهل؟ لا أظن، لكنها الجاهلية. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء. تعالوا ندرس موقف الإسلام من الإنسان وعلاقته بالأرض، ونحكم العقل الموضوعي فيما نصل إليه من نتائج. ونستفيد منها على الأقل في دنيانا التي نحرص وتحرسون أنتم عليها كل الحرص وان اختلفت الدوافع والبواعث. إنها أرض واحدة وإذا فسد أي جزء منها فسدت كلها ونهلك جميعاً. وعلينا معشر علماء المسلمين أن نوضح بكل جلاء للعالم كله موقف الإسلام من البيئة ومسؤوليتنا حيال ظهور وسيادة هذا الموقف لا تقل عن مسؤولياتنا الكونية حيال أي قيمة إسلامية أخرى.

٤/٢- العامل الفكري والتكنولوجي:

باعتراف العديد من الخبراء على تنوع تخصصاتهم فإن هذا العامل قد أسهم ومازال فيما حدث من عدوان على البيئة أدى إلى إجهادها بل وتدهورها وفساد الكثير من عناصرها.

ونشير هنا إلى مجرد مجالين اسهما في إحداث ذلك، الأول منهج البحث العلمي الذي سارت عليه الحركة العلمية في أوروبا. والثاني

ما الذي يمكن ان يكون عليه وضع الإنسان وغيره من الكائنات الأخرى .
«وهناك أيضاً اتجاهات بيئية تهدد بتغيير كوكبنا تغييراً جذرياً، وتهدد بالخطر حياة العديد من أنواع الكائنات الحية التي تقطنه، ومنها الجنس البشري، ففي كل سنة تتحول ستة ملايين هكتار من الأراضي الجافة المنتجة إلى صحار لا قيمة لها، وخلال ثلاثة عقود يمكن لهذه أن تبلغ حجم المملكة العربية السعودية تقريباً، وهناك أكثر من أحد عشر مليون هكتار من الغابات تدمر سنوياً، ويمكن أن يعادل ذلك خلال ثلاثة عقود بمساحة الهند، ومعظم هذه الغابات تتحول إلى أراض زراعية من الدرجة الدنيا العاجزة عن تأمين غذاء الفلاحين الذين يسكنونها . وفي أوروبا تقتل الأمطار الحامضية الغابات والبحيرات وتدمر التراث فني والمعماري للشعوب وربما أدت حتى الآن إلى تآكل أجزاء هائلة من التربة بشكل غير قابل للإصلاح ، ويؤدي حرق الوقود الأحفوري إلى نشر ثاني أكسيد الكربون في الجو، مما يتسبب في الزيادة التدريجية للحرارة في العالم ويحدث ما يسمى «تأثير البيت الزجاجي» الذي يمكن أن يؤدي في وقت مبكر من القرن القادم إلى زيادة في معدل الحرارة بصورة عامة بما يكفي لتحول مناطق الانتاج الزراعي ورفع مستوى البحار وغرق المدن الساحلية واحداث اضطرابات في الاقتصاديات القومية ، وتهدد غازات صناعية أخرى باستنزاف الأوزون الذي يحمي الكرة الأرضية إلى الحد الذي يمكن أن يرتفع معه بشكل حاد عدد اصابات الناس والحيوانات بالسرطان ، وتعرض للاختلال دورة الغذاء في المحيطات وتطرح الصناعة والزراعة مواد سامة في مكونات الدورة الغذائية للإنسان في طبقات المياه الباطنية إلى الحد الذي يتجاوز امكانية التطهير»^(١) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

الفكرية والعلمية والتكنولوجية والاقتصادية، حيث هو الذي يحدد
 غاياتها ومساراتها وضوابطها. وبغير تحديد صحيح لتلك الجوانب
 تصبح تلك السلوكيات كالحصان الجامح فتكها الإنسان وبالبيئة أعظم
 بكثير من نفعها^(١). وقد أثبت المؤرخ الأمريكي رايلي أن الثقافة
 اليهودية/المسيحية والتي هي أساس الثقافة الغربية الحديثة تقف موقف
 العداء تجاه البيئة الطبيعية^(٢). ونحن نضيف إليه أنها تقف موقف العداء
 تجاه البيئة الإجتماعية كذلك، ألم تعتق مبدأ اللذة وعلاقته الطردية
 الكاملة بالسعادة، ألم تعتق مبدأ الكثرة في كل ما يقتنيه الإنسان
 ويستهلكه وعلاقتها الطردية الكاملة بالسعادة؟ لدرجة أن يصرح
 سبنسر بأن اللذة الإنسانية هي في النهاية الشيء الذي له قيمة في
 الحياة^(٣).

قلنا أن الفكر الوضعي حيال هذا العامل غلب الطابع السلبي،
 بل في حالات كثيرة نجد موقف الإعراض واللامبالاة. والمحاولات
 القليلة في هذا الصدد لم تكن في معظم حالاتها موفقة، وعلى سبيل المثال
 نجد رينيه دوبو العالم البيولوجي الشهير حامل جائزة نوبل في العلوم في
 كتابه الفذ المعنوب بـ (So Human an Animal) والتعريب القريب
 من الحرفي هو «يا لإنسانية هذا الحيوان...» وقد قام بتعريبه الدكتور نبيل
 صبحي الطويل تحت عنوان «إنسانية الإنسان: نقد للحضارة المادية»^(٤).

(١) نفس المصدر، ص ٢١٧. (٢) مرجع سابق، ص ١٥٤ ج ٢.

(٣) وهذا واضح بين لكل دراسي علم الاقتصاد، حيث يربط الحاجة والمنفعة باللذة، وحيث
 يربط السعادة بمقدار ما لدى الإنسان من سلع، ويذهب وراء بنشام في قوله ان كل ما يحقق
 لذة فهو خير. انظر في ذلك جون راندال، تكوين العقل الحديث، ترجمة د. جورج طعمة
 بيروت: دار الثقافة، ص ٣١٣، ص ٥١٦ ج ١٢.

(٤) مرجع سابق. (٥) انظر نفس المصدر ص ٦.

ومن ثم فإن الأولى لا تتطلب في الحصول عليها دفع ثمن أو مقابل عكس الثانية .

ولعل من أشهر أمثلة الأولى الهواء والماء وأشعة الشمس ، وتدهور البيئة معناه في الكثير الغالب تدهور هذه الأموال وتحولها من أموال حرة إلى أموال اقتصادية يبذل في الحصول عليها أحياناً أغلى الأسعار، وأحياناً يتعذر الحصول عليها بأي ثمن، وهناك فهم خاطيء شائع مفاده أن الأموال الحرة قليلة الأهمية في النشاط الاقتصادي، وعادة مالا تدخل في صلب الحسابات الاقتصادية وللتدليل على خطأ هذا الفهم أنه في الكثير الغالب من الحالات لا يتأتى تواجد الأموال الاقتصادية في غيبة الأموال الحرة الجيدة، فالهواء مثلاً هو عنصر ضروري لإنتاج أية سلعة، سواء بالنسبة للقائمين على الانتاج من البشر أو بالنسبة للمنتجات نفسها، فهواء متلوث معناه انسان مريض ، وسلعة في معظم الحالات غير طيبة ، والأمر كذلك بالنسبة للماء ولأشعة الشمس التي حجبتها تراكمات الهباب والسخام والضباب الملوث^(١) .

وغير خاف أنه من المستحيل على الإنسان إنتاج كميات كبيرة من تلك الأموال الحرة على غرار ماهو متوافر منها في الكون .

ومن ناحية أخرى فإننا نجد التمتع بالسلع الاقتصادية والاستفادة المثلّي منها رهين تواجد نوعية بيئية جيدة، ومعنى ذلك كله أن توفر الأموال الحرة والتي هي عناصر كبرى في النظام البيئي شرط أساسي لتواجد واستمرارية تواجد السلع الاقتصادية، ولعل الدرس الكبير وراء

(١) ومعنى ذلك ينبغي أن يكون واضحاً تماماً أنه من غير الممكن المزيد من التمتع بالسلع الاقتصادية في غيبة النوعية الجيدة من البيئة، عكس ماقد يفهم من بعض عبارات الاقتصاديين التي تشير إلى المقابلة بين هذه وتلك .

٤- عوامل الإفساد في الأرض والاعتداء على البيئة

ليس من المجاز القول بأن الإنسان هو العامل الأول والأخير في إهدار البيئة وتدهورها^(١) أو على حد التعبير القرآني الدقيق في إفساد الأرض، لكن الانسان ليس مخلوقاً بسيط السلوك، وإنما يتسم سلوكه بالتعقيد والتركيب والتنوع. فهل المسؤول عن ذلك العدوان هو سلوكه الاقتصادي؟ أم هو سلوكه الثقافي؟ أم هو سلوكه الفكري؟ أم هو سلوكه الاجتماعي؟ أم هو سلوكه العقدي؟ وهل المسؤول عن ذلك هو السلوك الفردي؟ أم السلوك الجماعي؟

في الواقع لا نجد تلك الجوانب مستقلة ومنعزلة في الإنسان، وإنما هي متداخلة، ومتشعبة ومتعاضدة، ومن ثم فإن كل تلك السلوكيات الإنسانية مسؤولة عن هذا الإفساد وإن تفاوتت في مدى المسؤولية. فالسلوك الفكري يؤثر بشدة في السلوك الاقتصادي، وفي الوقت ذاته يتأثر به تأثيراً بالغاً، والسلوك الثقافي والاجتماعي وإن كان مؤثراً قوياً فيهما إلا أنه يعود بدوره ليكون متأثراً بهما. والحال كذلك في العامل العقدي، والذي يعتبر بحق الجذر الغائر لكل ماعداه، لكنه مع ذلك يعود فيتأثر بما عداه في أحيان كثيرة. ومن هنا يصعب القول باستقلالية مسؤولية كل عامل من هذه العوامل عن فساد البيئة. ومع ذلك ولأغراض البحث وتسهيل المعرفة نجد من الضروري محاولة تمييز المسؤوليات ولو بقدر غير كامل.

(١) مع التسليم بما للكوارث الطبيعية مثل البراكين والزلازل والجفاف من دور في ذلك، لكن أثر تلك العوامل قليل نسبياً من جهة ولبعضه علاقة بسلوك الإنسان العدواني من جهة أخرى، فالنصوص تثبت نوعاً من السببية للسلوك الإنساني.

(هـ) المزيد من تعقيد قضية التمويل : حيث أن تدهور البيئة معناه احتياج إلى المزيد من الموارد لانقاذها والمحافظة عليها، في الوقت الذي تشتد الحاجة فيه إلى هذه الموارد لانجاز التنمية، ويكفي أن نعرف أن مؤتمر قمة الأرض قدر الاحتياجات المالية لبرامج بيئية متتقة في البلدان النامية بما يصل إلى ٧٥ مليار دولار في السنة في نهاية القرن . ومن الدراسات التي قدمت لهذا المؤتمر تبين أن الاستثمارات الضرورية للحفاظ على البيئة يقدر تكلفتها بنحو ١٢٥ مليار دولار سنوياً في العالم كله، منها أكثر من ٦٠ مليار في العالم الثالث على مدى سنوات العقد القادم . وللأسف فإن أقصى ما دار حوله التفاوض من معونات من الدول المتقدمة هو ١٥ ملياراً من الدولارات .^(١)

(و) اختلال هيكل التجارة الدولية وتقسيم العمل الدولي : تحت ضغط المشكلات البيئية أخذت الدول الصناعية تمارس ضغوطاً حيال الدول النامية من حيث التجارة الدولية وتقسيم العمل الدولي مما يعرقل كثيراً من إنجازها للتنمية .

ومن ذلك على سبيل المثال توطيد الصناعات الملوثة للبيئة في ربوع الدول النامية، وفرض قيود على استخدام غابات الدول الصناعية، ومنح الدعم لاستيراد الأخشاب من غابات الدول النامية، وقيام العديد من تلك الدول بإنتاج منتجات كثيرة داخل أراضيها، ومنع دخول منتجات الدول النامية متذرعة بعدم اجتيازها اختبار النوعية البيئية المطلوبة . ومن الواضح أن تلك الممارسات كلها تضع عقبات كؤوداً في طريق التنمية بالنسبة للعالم الثالث^(٢) .

(١) سحيني دولر ماني، مرجع سابق .

(٢) لمزيد من المعرفة بعلاقة البيئة بالتجارة الدولية يراجع محبوب الحق، مرجع سابق، ص ١٣٧ وما بعدها .

S. J. Rabin & T.R. Grahm, Environmen and Trade, N. J.: Allanheheld, Os-mun & Co., Publishers, 1982.

بيتر يمينين، السياسات التجارية والبيئية، مجلة التمويل والتنمية، يونيه ١٩٩٢ م .

وكثرة الغراس ويقطعهم الاقطاعات في الأرض الموات ويجعل لكل أحد ملك ما عمره، ويعينه على ذلك فيه ترخص الأسعار ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الأجر، ويكثر الأغنياء وماتجب فيه الزكاة» وعلى نفس الشاكلة مافهمه الامام القرطبي رحمه الله من الآية الكريمة ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام . . ﴾ حيث يقول: «لو عمد رجل إلى ضيعة له فقال هذه تكون حبساً، لا يجتني ثمرها، ولا تزرع أرضها، ولا ينتفع منها بنفع، لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة . والجامع بينهما أنه قطع لطريق الانتفاع وازهاب نعمة الله، وإزالة المصلحة التي للعباد^(١). تأمل قوله: ﴿واذهب نعمة الله﴾ تجد التعطيل مدمراً ومهلكاً للموارد التي هي النعم . وقد صادق الامام الغزالي رحمه الله على ذلك بقوله: «إن في ذلك تخريباً للدنيا أولاً وللدين بواسطة الدنيا ثانياً»^(٢).

وهكذا نجد النظرة الإسلامية حيال جوانب الافساد في الأرض أو الاعتداء على البيئة أكثر شمولاً وإحاطة، حيث لم تهمل جانباً لحساب الآخر، عكس ماسار عليه الفكر الوضعي حيث كل الندوات والمؤتمرات انصرفت أبحاثها إلى مواجهة الاعتداء البشري على البيئة النابع من ممارسات فعلية، وليس هناك اهتمام يذكر بالاعتداء المتمثل في السلبية والانعزال وعدم توظيف البيئة واستخدامها - مما يترتب عليه تعطيلها عن أداء مهامها من جهة وفي ذلك مافيه من ضرر على الإنسان، ومن جهة أخرى يترتب عليه تلويثها وتدهورها من جهة أخرى .

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، ج٦ ص ٣٣٨ .

(٢) انظر احياء علوم الدين، القاهرة: مطبعة صبيح، ج٢ ص ٩٨ .

جذوره وهي مشكلة الفقر والتخلف ، ويوم يقضي على هذه الجذور ستزول تلقائياً هذه المشكلة ، أما غير ذلك فهو إما جري وراء الأعراض أو عوامل أقل أهمية على حساب اغفال عوامل أهم وأكثر خطورة .

وهناك من يرى أن العلاج يركز على قاعدتين ، علاج المشكلة السكانية وعلاج مشكلة التنمية . بمعنى آخر إنه لابد من توقف كل من النمو السكاني من جهة ، والنمو الاقتصادي من جهة أخرى ، حيث في نموها يكمن الخطر الداهم على البيئة ، واذن فلا مناص من تجميد كل منهما . وغير خاف ما في هذا القصور من جوانب قصور وضعف عديدة ، ويكفي أن نعرف أن توقيف النمو الاقتصادي فوق أنه غير ممكن هو غير مدعهم لحماية البيئة ، حيث اتضح لدينا مما سبق أن البيئة في حاجة إلى تنمية تمدها بالمال والتكنولوجيا التي تعمل على حمايتها والمحافظة عليها^(١) .

وهنا من يرى التركيز على جبهة النمو الاقتصادي لا من حيث تجميده أو جعله صفراً كما يذهب الرأي السابق بل من حيث تحجيمه من جهة وتغيير جوهره في أهدافه وفلسفته وأدواته من جهة أخرى^(٢) ، وبرغم صحة هذا الرأي وفعاليته غير أنه يصطدم بعقبات كبار ، فليس من السهل أن يتخلى العالم الغربي عن معتقداته حيال النمو ، وأن يتخلص من أسطورة النمو للنمو . بل إن تغيير معتقداته الدينية أخف عنده من تغيير معتقداته الاقتصادية كما عبر بصدق عن ذلك رايلي^(٣) . ولعل فيما حدث في مؤتمر قمة الأرض الأخير ما يبرهن على ذلك حيث

(١) ميدوز «حدود النمو» ريموند ريشيناخ «النمو صفر» .

(٢) ميزاروفيك ، مرجع سابق .

(٣) رايلي ، مرجع سابق ، ص ٣٤٠ ، أميلكار ، مرجع سابق ، ص ٢١٤ ، أريك فروم ، مرجع سابق ، ص ١٩٢ ، برل ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

الإنسان، ومن ثم فنحن أمام مشكلة بيئية، فإذا ماجئنا إلى التعطيل الذي يعني تعمد ترك استخدام البيئة وتركها على حالتها الفطرية فإننا نرى أن هذا السلوك يضر بالإنسان، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، كما أنه في الوقت ذاته يضر بالبيئة نفسها تأمل مياهاً تركت دون أي استخدام بشري لها^(١) أو تربة زراعية أو غير ذلك أليس في ذلك إضاعة لها؟. من هذا المنطلق يمكن فهم كون التعطيل أحد جوانب إفساد الأرض والاعتداء على البيئة. وعلينا أن ندرك أن هناك فرقاً جوهرياً بين التعطيل وبين ترك الاستخدام المؤقت والجزئي حيث إن ذلك الأخير لا يعد تعطيلاً، وإنما هو بالأحرى توفير وصيانة ومحافظة على البيئة^(٢) مثله مثل الشخص الذي يعمل ثم يأخذ راحة أو اجازة هل يعد عند ذلك عاطلاً؟؟. وما تجدر الإشارة إليه أن علماءنا الكرام قد تنبهوا لهذا الفرق الجوهري في ثنايا أبحاثهم، ومنهم الامام ابن حزم رحمه الله، قال رداً على من يقول بأنه لا يجب على الإنسان حفظ ماله إذا أراد اضاعته: «إضاعة المال حرام وإثم وعدوان بلا خلاف. ويجبر الإنسان على سقي نخله إن كان في ترك سقيه هلاك للنخل، وكذلك في الزرع، برهان ذلك قول الله تعالى ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ فمنع الحيوان ما لا معاش له إلا به من علف أو رعي، وترك سقي شجر الثمر والزرع حتى يهلكا هو بنص كلام الله إفساد في الأرض، واهلاك للحرث والنسل، والله تعالى لا يحب هذا العمل. فإن قيل فأنتم لا تجبرون أحداً على زرع أرضه إذا لم يرد ذلك،

(١) وقد أثار هذه المسألة الدقيقة العلامة الإسلامي ابن خلدون، انظر المقدمة، مرجع سابق،

ص ٣٨٢.

(٢) د. محمد عوض الله، مرجع سابق، ص ٥٧.

الرشيء حيال ذلك هو تعديم وتقوية الروابط الإيجابية والعمل على تكميش الروابط السلبيية، وذلك رهين السياسات التنموية التي تطبق^(١).

كذلك نجد الاصرار المتزايد على تطبيق مبدأ «من يفسد يدفع» وان كان الصدى الدولي له مازال متطامناً إلى حد بعيد، كما يرهن على ذلك مؤتمر قمة الأرض حيث تملصت الدول الصناعية من مسؤولياتها عن تدهور البيئية في الدول النامية، ومن ثم عن تحملها للتكاليف المطلوبة لعلاج هذه المشكلات البيئية^(٢).

ومن ناحية أخرى نجد التوجه القوي نحو التكنولوجيا، على أساس أن بإمكانها الاسهام الفعال في حماية البيئية من جهة، وخدمة عمليات التنمية في الوقت ذاته من جهة أخرى^(٣).

قد يلاحظ القاريء مدى مافي عرضنا هذا لمواجهة الفكر الوضعي لمشكلات البيئية من اجمال وتركيز شديدين بحيث لا يعدو بعض رؤوس المسائل، وهذا أمر مسلم به ومقصود حيث هناك الابحاث والمراجع المتخصصة في تناول تحليلي ومفصل لهذه الجوانب^(٤) وعرضنا لها هنا فوق أنه متعذر فلن يأتي بجديد يستحق مايبذل فيه.

والذي نحب أن نؤكد عليه هو خلاصة المواقف من جهة، ومايمكن ملاحظته حولها من جهة أخرى، لاننكر مافي هذه المحاولات

(١) أندرو ستير، مرجع سابق، تقرير ٩٢ ص ٢٢ ومابعدها.

(٢) سجينى دولر ماني، مرجع سابق.

(٣) تقرير ٩٢، ص ١٥٨ ومابعدها.

(٤) يكفي في ذلك تقرير اللجنة العالمية، مستقبلنا المشترك، وتقرير التنمية ١٩٩٢م حيث يستغرق في تناول هذه القضية وملحقاتها.

بعبارة أصح وأدق أحد أوجه إفساد الإنسان في الأرض يعني ادخال عناصر ضارة ومؤذية، وفاسدة إلى العناصر البيئية فإن الاستنزاف باعتباره الوجه الثاني لهذا الإفساد يمثل نهب وسلب مالمدى البيئة من عناصر ومكونات ونحن نعني بكلمة نهب وسلب معناها الصحيح، فالإنسان في كثير من تعامله مع البيئة لا يحترم قوانين التعامل . ولا يلتزم بمقتضاياتها، حيث يريد أخذ كل شيء تَوّاً ودون مانظر للغير من جهة، ولا للأجيال اللاحقة من جهة أخرى . يتعامل معها كأنها لم تخلق إلا له وكأنها مخلوق لا حدود لإمكانياته ولا نفاذ لموارده مهما اشتط به العبث^(١) . فكم من بلايين الأطنان من المعادن أخذت من البيئة لغير ما هدف صحيح ثم سرعان ما بددت ودمرت، وكم من مياه استهلكت بسرف وفي غير ماطائل، وكم وكم وكم، مما لا يخفى على أحد من المهتمين، ولعل نقل بعض أقوالهم في هذا الشأن فيه الكفاية والغناء . يقول بول: «إن إصدار جريدة التايمز في أحد أيام الأحاد مثلاً يتطلب إبادة ٣٠٠ فدان من الغابات»^(٢) ترى لو أجريت محاكمة عادلة وتقويم دقيق للتكلفة والعائد أكان يحدث ويستمر مثل ذلك السلوك؟؟ ويقول دويو: «وبسبب تزايد السكان، والمطالب غير المعقولة والبالغة حد الإسراف- وهو سبب أكثر أهمية- لا مناص الآن من استعمال كل مصادر المياه الطبيعية في حاجاتنا اليومية فقط . والاضطراب في دورة تشكل المياه أسرع في جريان هذه المياه إلى البحر، وفي تدمير وجرف الطبقة السطحية من الأرض وتعرية التربة بهذه الطريقة لن يترك في

(١) دويو، مرجع سابق، ص ٢٢٢ .

(٢) مرجع سابق، ص ٥١ .

واضحة جلية إنها تتجسد في حتمية اختيار أنماط جديدة للتنمية، خاصة على مستوى الأهداف والغايات وعلى مستوى الأساليب، لكن هل وضعت كل من الدول المتقدمة والدول النامية هذه الرسالة موضعها الصحيح، وهل قامت فعلاً بإعادة تشكيل سياساتها الاقتصادية بحيث تعكس هذا التوجه المراد له ان يكون؟

وعلى صعيد آخر فإن أخطر مشكلة تواجه حماية البيئة حماية حقيقية وهي الفقر المتفشي واللامساواة الشديدة لم تتلحقها هي الأخرى رغم التحذيرات القوية من أنه بغير علاج هذه المشكلة لن تعالج المشكلات البيئية، ورغم الآمال العريضة التي بدأت تتأكد في كون سياسات البيئة الجيدة تسهم بفعالية في تحسين نمط التوزيع، لكن ماهي الآليات الفعالة التي تحقق ذلك؟ وما مدى توفرها والالتزام الصريح بها؟

وأخيراً فإن الجوانب الإدارية والتشريعية والتنظيمية التي تسهم إيجابياً في تحقيق هذه المتطلبات السابقة لم تحرز الجهود المذكورة حيالها نجاحاً كبيراً، رغم التحسن الكبير الذي طرأ عليها مؤخراً، ورغم ما أخذت تحتله من مكانة بين متطلبات العمل البيئي السليم، وحتى الآن نجد قدراً من التضارب بين تقرير اللجنة العالمية وما أسفر عنه مؤتمر قمة الأرض حيال مسألة توحيد أو فصل مسؤولية حماية البيئة ومسؤولية تدهورها، وهل من الأفضل أن لا يكون المسؤول عن حماية البيئة هو نفس الجهة المجهدة لها أم العكس. ثم ماهو الأسلوب الصحيح الفعال لمواجهة ملايين الاعتداءات البشرية على البيئة؟ خاصة في ربوع البلدان النامية، حيث العديد والعديد من الوحدات الانتاجية والاستهلاكية الصغيرة تسهم بقوة في العدوان على البيئة، كيف يمكن للحكومات أن تواجه ذلك العدوان؟.

المتناولة له من كل أبعاده وزواياه، وليس تقصي ذلك مطلوباً منا هنا ولا نحن مؤهلين له، ويكفي هنا التعريف به وبأهم مصادره وأهم صوره. إن مصدر التلوث الأساسي إن لم يكن الوحيد هو ادخال عناصر غريبة غير طيبة وغير مرغوب فيها في أي عنصر من عناصر البيئة، يستوي في ذلك العنصر الطبيعي مثل الماء والهواء وسطح التربة والعنصر الاجتماعي مثل القيم والمعتقدات والأنظمة. وفي ضوء ذلك يمكن لنا ان نشاهد بل ونعايش العديد والعديد من صور التلوث فهناك تلوث الماء وتلوث الهواء وتلوث سطح الأرض وتلوث بعض الجمادات وبعض الحيوانات، كما نجد التلوث الناشيء من النفايات الغازية والسائلة والصلبة، وهناك التلوث الناشيء من الحرارة ومن الضوضاء ومن الزحام... إلى غير ذلك^(١) ومن جهة أخرى ففي حالات كثيرة محيطة بنا نجد التلوث الفكري والتلوث الاجتماعي والتلوث الأخلاقي وان كنا - وبكل أسف- لا نعثر على كتابات ذات بال تنصرف إلى تعرية وكشف هذا اللون الخطير من التلوث المفسد والمدمر، والذي لا يقل في سوء آثاره عن تلوث البيئة الطبيعية، ولا ندري على وجه التحديد ما وراء هذا التجاهل والتعامي البشري. وإذا كان التلوث البيئي الطبيعي يرتد مفعوله السلبي على الإنسان في صحته وفي ماله وفي وجدانه ومشاعره فإن هذا التلوث في الجانب البيئي الاجتماعي يرتد مفعوله السلبي هو الآخر على الإنسان في كل مقومات حياته وسعادته، وغالباً بوقع أشد. والخطورة في هذا اللون من التلوث أن آثاره قد لا تظهر على الفور، وإذا ظهرت فكثيراً ما لا تعزا العزو الحقيقي إلى مصدرها. ويكفي في التدليل على مدى جسامه

(١) لمزيد من المعرفة بأنواع التلوث ومصادره يراجع د. أحمد اسلام، مرجع سابق.

جهة أخرى، ومعنى ذلك أنها تربي فيه السلوك البيئي الصحيح، فما حوله هو في الأول والأخير نعم من الله تعالى عليه، خلقها المولى من أجله هو، ومن ثم فهي تستوجب التقدير والتكريم والرعاية والحفظ وحسن التعامل حيث لا بقاء له ولا لبني جنسه دون تواجدها بكميات ونوعيات مناسبة.

كذلك نجد الإسلام لا يقف عند حد هذا التأهيل والتربية وإنما يتجاوزها إلى سن التشريعات الملزمة التي تحول دون ذلك العدوان، وتعامل معه بفعالية وكفاءة إذا وقع.

وللتنبيه البين على أهمية أثر العقيدة في تصرفات الإنسان حيال البيئة واستخدامه لها، تسوق لنا السنة الكريمة هذا الحديث «إن المسلم يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١) قال ذلك في معرض تفسير التغير الجوهري في استهلاك أحد الأفراد بين يوم وليلة عندما كان كافراً ثم أصبح مسلماً.

٢- التعامل مع الاسراف بكفاءة وفعالية: لم يعد يغيب عن بال أحد مدى ما بين الاسراف والحفاظ على البيئة من أشد أنواع العداوات، بحيث يمكن القول ان الاسراف وراء معظم المشكلات البيئية من حيث وجودها ومن حيث استفحالها، ولذلك فليس من المبالغة القول بأن تواجد نوعية بيئية جيدة رهين التعامل الكفؤ مع ظاهرة الاسراف، وبقدر النجاح في مواجهة هذه الظاهرة بقدر ما يكون النجاح في حماية البيئة، وقد لاحظنا ان طرق الحماية الوضعية لم تضع هذا العامل موضعه الصحيح، فلم نجد هناك تحليلات علمية حيال هذا العامل من حيث

(١) حديث صحيح رواه البخاري ومسلم. انظر المناوي، فيض القدير، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ج ٦ ص ٢٥١.

يتوصل إليه من معارف وعلوم فيظن أنها هي بذاتها التي هيأت له ذلك . وهذا التكييف الإسلامي الدقيق لعلاقة الإنسان بالبيئة حقق لها كل مقومات الكفاءة والفعالية والاتزان ، فالإنسان من جهة مزود بخصائص ومؤهلات تجعله يستطيع أن يؤثر بفعالية في البيئة ، وإدراكه أن الذي منحه ذلك وأن الذي منح البيئة القدرة على الانفعال والاستجابة هو الله تعالى يمنعه من الخنوع للبيئة ومن التأله عليها والتكبر ، وما أروع قول الامام الرازي في هذا الشأن «سخر لك الكل لئلا يسخرك منها شيء ، وتكون مسخراً لمن سخر لك الكل وهو الله تعالى»^(١).

(١) نقلاً عن الامام البقاعي ، مرجع سابق ، ج ٨ ص ٧٦ ، قارن د . سعيد البوطي ، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٢ ، ص ٩٥ وما بعدها .

سلوك مرفوض إسلامياً.

وأمانا حديث صحيح يصور بأبلغ عبارة مضار الإسراف وعلاقته بفساد البيئة. يقول ﷺ: « لا والله ما أخشى عليكم أيها الناس إلا ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا، فقال رجل يارسول الله: أيأتي الخير بالشر؟ فقال الرسول ﷺ: إن الخير لا يأتي إلا بخير. أو خير هو؟ إن مما بينت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم، إلا آكلة الخضر، أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتها ما استقبلت الشمس فثلثت وبالت ثم اجترت فعادت فأكلت، فمن يأخذ مالاً بحقه يبارك له فيه، ومن يأخذه بغير حقه فمثله كمثل الذي يأكل ولا يشبع»^(١).

هذا الحديث الشريف مليء بالدلالات الصريحة والضمنية، وهو بمفرده كاف ليكون اطاراً صحيحاً لكل من سياسة التنمية وسياسة البيئة على حد سواء، وفيه تخوف الرسول ﷺ على أمتة من الاستغراق في الرخاء والكثرة، وفيه استنكاره أن تكون الأموال وكثرتها في حد ذاتها خيراً محضاً وإنما هي من خلال التعامل معها تكون خيراً أو شراً، ونرى تأكيد ﷺ على أهمية السلع الحرة ليتمكن الاستفادة بالسلع الاقتصادية، لاحظ قوله ﷺ «استقبلت الشمس» ثم نجد التحذير البالغ من الاسراف في الاستهلاك، إذ فيه الموت المحقق، مثل المسرف في ذلك مثل البهيمة التي أقبلت بشراهة على بعض النباتات الشهية فأكلت بغير حدود فكان في ذلك حتفها، عكس الاعتدال.

لكن هل يكفي هذا الحشد الهائل من التوجيهات والمبادئ بل

(١) رواه مسلم، انظر النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، المطبعة المصرية، باب التحذير من الاغترار بزينة الدنيا.

٢/٢ - علاقة المسلم بالبيئة :

هى علاقة توازن واتساق وتفاعل إيجابي، بريئة من الاختلال والتطرف، المسلم لا يعبد البيئة لأنه يعرف أنها مخلوقة مثله وأن هناك خالقاً لها وله، يستحق العبادة، ولا يتأله عليها لأنه يؤمن أنه مخلوق مثلها. ولا يعتز لها لأنه يدرك أنها مخلوقة من أجله وأنه لا غنى له عنها في حياته وممارسته لمهمته ووظيفته، ولا يفهرها لأنه يعلم أن محاولة ذلك في غير صالحه هو. هذه العلاقة الحميدة قد صاغها الإسلام كأحسن ماتكون عليه علاقة بين اثنين لا غنى لأحدهما عن الآخر. وحمي بذلك العقل المسلم من الخوض في متاهات فلسفية عقيمة ومن الشطط في أفكاره وسلوكياته. إن أقرب مدرسة وضعية إلى الحق هي تلك المدرسة التي تدعي بالتوافقية حيث تعطي لكل من البيئة والإنسان دوراً فاعلاً في صياغة العلاقة بينهما. وأعظم من ذلك وأدق ما قدمه الإسلام، لقد بين للمسلم أن الأرض بما عليها وما فيها مخلوقة من أجل الإنسان، ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾^(١) وبين له أنه قد سخر له الأرض بما فيها وما عليها بل إن ما في السموات مسخر من أجل الإنسان بالنصوص القرآنية القاطعة ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾^(٢).

وبين له أن الله تعالى قد منحه كلا من العقل والهداية السماوية كي يتعامل مع الكون تعاملًا متزنًا إيجابيًا. وبين له أخيراً أنه منحه القدرة على الافساد في الأرض بصورة أو بأخرى ولكنه حذره من ذلك بكل صيغ

(١) سورة البقرة: الآية رقم (٢٩).

(٢) سورة لقمان: الآية رقم (٢٠).

ومن ذلك استخدام أداة الرسوم، بحيث يتحمل المستهلك للمياه، وللطاقة مثلاً التكاليف الحقيقية لما يستهلكه^(١)، مع مراعاة ضوابط معينة ليس هنا محل تفصيل القول فيها، مثل التمييز الجزئي بين المواد وكذلك فئات المستهلكين، والضابط الحاكم أن التصرف على الرعاية منوط بالمصلحة، بحيث لا يمثل ذلك خروجاً على نص صحيح صريح ولا قاعدة متفق عليها.

٣- التأكد الجازم على نظافة البيئة وعدم تلوثها: يكفي أن نعلم أنه لا صلاة بغير طهارة لكل من الجسم والملبس والمكان، كذلك نجد الأحاديث العديدة التي تؤكد على أهمية النظافة سواء للإنسان أو البيئة، وتحظر أي عمل من شأنه أن يحدث تلوثاً بيئياً، ومن ذلك على سبيل المثال، النهي النبوي الصريح عن التبرز والتبول في الطريق وفي المياه، وفي أماكن الإيواء والراحة^(٢)، كذلك نجد الحظ والحث على إمالة الأذى عن الطريق، كذلك نجد الأوامر الصريحة بتنظيف المباني والأفنية والساحات والميادين، وعدم إلقاء أو إبقاء فضلات -زباله- فيها^(٣).

(١) وقد فصل القول في ذلك تفصيلاً شافياً في صفحات عديدة كل من تقرير التنمية (١٩٩٢م، ١٩٨٨م، فليراجعها من يريد مزيداً من المعرفة.

كذلك يراجع د. عبدالله الثمالي، رسوم الخدمات العامة، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، الرياض. العدد التاسع سنة ١٤١١هـ.

(٢) انظر نص الحديث الصحيح في فيض القدير، بيروت، دار الفكر، ص ١٣٦ ج ١.

(٣) انظر نص الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه، فيض القدير، نفس المصدر، ص ٢٣٩ ح ٢ وربما يورد علنياً هنا بعض الأحاديث مثل رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، وكذلك يرد علينا ما كان يحدث من بصاق في المسجد، ومن قضاء للحاجة في الخلاء، لكن ذلك كله لا يواجه مواقف الإسلام الصحيحة الصريحة بشأن النظافة. وعند التأمل الجيد لا تجد بين الأمرين تعارضاً، فهل يعني حديث الأشعث الأغبر أن يصير الناس كلهم كذلك؟؟ وأين هذا من حسن الهندام الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، ثم ماذا في قضائهم للحاجة في الخلاء حيث لم يكن قد تعورف بعد على المراحيض في المنازل، ان الفضلات تطمر في الأرض الشاسعة الواسعة وسرعان ما يزول أثرها، ثم ان المسجد كان من رمل وحصى ومع ذلك اعتبر الإسلام البصاق فيه خطيئة لن تمح إلا بإزالته يقول ﷺ «البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها» وأين نحن من حديث خمس من الفطرة، وكلها تفيده النظافة وحسن المظهر؟؟ ومن صلاته ﷺ على المرأة التي كانت تقوم على تنظيف المسجد عندما علم بدفنها.

هذه العلاقة، يقول أرك فروم: «إن علاقة الناس - طبعاً يقصد غير المسلمين - بالطبيعة اتسمت بالعداء الألد فنحن من نزوات الطبيعة، ظروف وجودنا تجمعنا جزءاً منها وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها. ومن ثم فقد حاولنا أن نحل معضلة وجودنا بنذ رؤية الخلاص المتمثلة في الإنسجام بين الجنس البشري والطبيعة، واتجهنا نحو إخضاعها وقهرها وتحويلها لخدمة أغراضنا، إلى أن أصبح هذا القهر مرادفاً لتدبير الطبيعة. إن روح العداء والإخضاع أعمتنا عن حقيقة أن للموارد الطبيعية حدوداً يمكن أن تنفذ، وأنه سيأتي اليوم الذي سترد فيه الطبيعة على جشع الإنسان، إن المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة»^(١).

ويؤمن العديد من المفكرين الغربيين بأن تغيير هذا الموقف وإيجاد موقف جديد إزاء الطبيعة قائم على التوافق والانسجام وليس على الغزو والقهر هو أحد الشروط الضرورية لانقاذ الجنس البشري من الهلاك المحقق^(٢).

وفي اعتقادي أن منبع المشكلة ومصدر الداء هنا أن الإنسان غير المسلم يدخل الحلبة ليكون في مواجهة ومقابلة البيئة دون استشعار وجود نظام محكم لهذه العلاقة خلقه وأوجده خالق كل من الإنسان والبيئة. والعجيب أن الإنسان غير المسلم في معظم أفراده يؤمن بأن الذي خلقه وخلق الكون من حوله هو الله تعالى كما سجل القرآن ذلك، «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل

(١) أريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعيد زهران، عالم المعرفة (١٤٠) ص ٢٦.

(٢) رينيه دوبو، مرجع سابق، ص ٣٩.

وموقعها وما تستخدمه من آلات وأساليب ، كذلك نجد التأكيد القوي والحرص الكامل على نظافة المياه المستخدمة في الشرب ، وعدم السماح باحداث أي ملوث لها من قبل من يقومون بتوفير هذه السلعة المهمة ، وكذلك المياه المستخدمة في الاستحمام والنظافة .

كذلك نجد الحرص الكامل على عدم القاء الفضلات في العراء مكشوفة لما في ذلك من تلويث للهواء ولا إلقاءها في المياه ، وإنما تحفر لها حفائر عميقة وتغطى ، حتى تزول رائحتها ولا يتأذى منها أحد ، وكذلك طرح فضلات المياه في الشوارع والطرق .

وما ينبغي الإشارة إليه هنا أولاً النظر في هذه الصورة والأمثلة من خلال المنظور التاريخي لها ، بمعنى أن تقوم في ضوء الواقع الذي كان سائداً . وثانياً أن تطور وتعديل في ضوء الواقع المعاصر حالياً ، حيث يتأتى ذلك في العديد والعديد مما قيل سلفاً ، والاختلاف هو في الشكل والحجم وضخامة الآثار المترتبة ، وكذلك في تنظيم واختيار الأساليب المناسبة لانجاز تلك المهام . وثالثاً أن كل ما هو مدون في كتب الحسبة إنما يرجع إلى ضابط واحد هو «الشرع المطهر» فكل ما نهت عنه الشريعة وجب على المحتسب إزالته والمنع منه وما أباحته الشريعة أقره على ما هو عليه . ورابعاً أننا نجد تدخل الدولة واضحاً جلياً في الحفاظ على البيئة وعدم الاعتداء عليها سواء من قبل التنمية الاقتصادية أو غيرها ، وقد اتخذ التدخل صوراً عدة هي المنع من احداث ما يفسد البيئة ثم هي إزالة ما قد يكون قد قام من تلك المفسدات ، ثم هي تضمين المفسد قيمة ما أفسده . وأخيراً فإن دور الدولة هنا لا يقف عند ذلك بل يتعداه إلى الإرشاد والتعليم وتعريف الناس بالطرق والأساليب والأدوات الصحيحة التي تحقق لهم مطالبهم وفي الوقت ذاته تحافظ على البيئة .

استخدامها الاستخدام الصحيح لتؤدي مهمتها، وضرورة احترامها وتقديرها، وتجيء السنة الكريمة فتوضح هذا المعنى وتعيد تأكيده .

ومن ذلك الأحاديث الصحيحة التي تدل على دخول امرأة النار بسبب سوء معاملة قطه؟ ودخول رجل عاص الجنة لحسن معاملته لكلب، كما نجد الأحاديث التي تحذر وتنهي عن سوء معاملة الحيوان ومنها: «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول: يارب ان هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني أكل من خشاش الأرض»^(١) مجرد عصفور واحد فما بالنا بملايين الحيوانات والطيور والأسماك التي يقتلها التلوث أو التصحر؟ ومنها: «لا تقصوا نواصي الخيل فإن فيها البركة، ولا تجزوا أعرافها فإنها أذفاؤها، ولا تقصوا أذنابها فإنها مذاها»^(٢)، ومنها «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها اقضوا حوائجكم»^(٣).

وعن البيئة النباتية نجد التحذير الشديد من تدميرها- خاصة الأشجار- يقول ﷺ: «من قطع سدره- شجرة- صوب الله رأسه في النار»^(٤)، وفي شرحه لهذا الحديث يقول أبوداود «هذا الحديث مختصر ويعني من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهاائم عبثاً بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار»، وفي حديث آخر «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها فليغرسها فإن له فيها أجراً»^(٥) وفي

(١) رواه غير واحد بعبارات متفاوتة انظر المناوي، فيض القدير، مرجع سابق، ص ١٩٢ ح ٦.

(٢) رواه ابوداود وغيره، انظر سنن أبي داود، مكتبة عيسى الحلبي، ص ١٤٧ ح ١.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٦ ح ٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٦٥، ح ٢.

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد ص ١٦٨، نشر قصي الدين الخطيب.

الاعتداء على البيئة ، وراء التلوث في معظم صوره ، ووراء الاستنزاف ، بل انه في مفهومه الإسلامي وراء التعطيل أيضاً .

ومن حسن الحظ أن الوعي بخطورة هذا الموضوع أخذ في النمو وان لم يصل بعد إلى الدرجة المرجوة . ولكي نعرف طرفاً صغيراً من ضخامة مشكلة الإسراف المعاصرة نقرأ هذا التغير الذي قدمه أحد العلماء الغربيين منذ فترة «يصرف الأمريكيون على الكلاب والقطط ٤ , ٥ بليون دولار سنوياً ، بينما لم تبلغ مساهمة أمريكا في اطعام الشعوب الجائعة في العالم سوى ٢٥ بليون دولار في السنوات العشرين الماضية ، وتستهلك القطة الأمريكية الواحدة في السنة نحو ١٥٠ رطلاً من الأطعمة اللذيذة مثل لحم الأبقار والكبد ، وقد يستهلك الكلب الأمريكي نحو ١٧٥ رطلاً من اللحوم المشوية والجبن في السنة ، وتأكل القطة من الطعام أكثر مما يحتاج إليه إنسان بالغ ، أما الكلب فيأكل مايكفي انسانين . ان أطعمة الحيوانات الأليفة تكفي لاطعام ١٢٠ مليوناً من البشر في اليوم»^(١) وهذا ومثله وربما ما هو أدهى منه هو الذي جعل جيسكار ديستان يقول : «تصور ياوزير المال كيف ستكون حالة التلوث العلمي - وكذلك استنزاف الموارد- لو ان مستوى استهلاك الصينيين والهنود كان مساوياً لمستوى الاستهلاك لدى الأمريكيين»^(٢) .

وفي معرض تناول طرق العلاج سوف نتعرف على موقف الإسلام من الإسراف والتبذير في استخدام الموارد ، ومضمون كل من الاسراف

(١) فرانكلين بول ، الجوع أقصر طريق إلى يوم القيامة ، ترجمة حسني عايش ، بيروت : دار القلم ، ص ٢٢٩ .

(٢) موريس غورنبيه ، العالم الثالث ثلاثة أرباع العالم ، ترجمة سليم مكسور ، بيروت : المؤسسة العربية للنشر ، ص ١٤ .

تتجه من باب أولى إلى الحكومات لعظم المضار المترتبة على عدوانها على البيئة . . ومعنى ذلك أن الدولة ممنوعة من تدمير الغابات والنباتات ، وفرق شاسع بين التدمير والاستخدام الحسن ، كذلك الحال فيما على أرضها من طيور وحيوانات .

٥- التحذير الصارم من أن الإنسان هو المحتمل في النهاية لنتيجة عدوانه على البيئة : لقد حرص الإسلام كل الحرص على أن يبين لنا أن هناك ارتباطاً قوياً طردياً بين حال الإنسان وحال سلوكه حيال بيئته ، ان خيراً فخيئاً وان شراً فشرأ ، والأمر في النهاية حسب دلالة الصياغات الإسلامية أن هذه نعم . وشكر الإنسان لله عليها يبقها وينميها ، وكفران الإنسان لهذه النعم يزيلها ، وبزوالها تتحول حياة الإنسان إلى ضنك ومشقة إن لم تزل كلية ، وشكران النعم وكفرانها هو سلوك عقدي وعملي حياها وليس مجرد ثثرة كلامية ، ولعل هذا هو السر في تذييل الآيات الكريمة التي تتناول هذه المخلوقات بكونها نعماً وبأن على الإنسان أن يحذر من كفرانها ، وقد قص علينا القرآن الكريم في ذلك قصة القرية التي كفرت بأنعم الله ، كذلك صاغ لنا سنة إلهية لا تختلف والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً^(١) ، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون^(٢) ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا^(٣) .

(٢) الأعراف ، الآية : ٩٦ .

(١) الأعراف ، الآية : ٥٨ .

(٣) نوح ، الآيات : ١٠-١٢ .

إذهاب ما في الشيء من نفع وصلاحية، وقد مثل لذلك بقتل النفوس، ومن يطلع على ما يحدثه تلوث الماء من ازهاق للنفوس البشرية وغيرها وكذلك تلوث الهواء، يدرك بحق ان التلوث هذا يقع في بؤرة مفهوم الفساد. كما مثل لذلك بسرقة الأموال ونهبها. وفي الحقيقة لانجد أصدق من هذا الوصف على ما يحدث حالياً من استنزاف للموارد على اختلاف أنواعها من غابات وطاقه ومياه وغير ذلك. كما مثل لذلك بإفساد العقول والأنساب والأديان، مما يعني أنه قد أحاط بكل من البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية عند من يتأمل فيه ويقرنه بما يحدث من اعتداءات على البيئة.

ومع شيوع مصطلح الإفساد في الأرض إسلامياً ومع إيماننا بأن مضمونه ينتظم كل صنوف الاعتداءات على البيئة فإننا - إسلامياً - مع ذلك لانباعد كثيراً عن مصطلح الاعتداء على البيئة. لقد بينت السنة الشريفة ان للطريق حقاً وأن للدواب حقوقاً، وحفلت كتب الفقه بشرح أبعاد هذه الحقوق، وطالما ان هناك حقاً فإن عدم الوفاء به يعتبر اعتداء على صاحب الحق. ومهما يكن من أمر فإن مصطلح الافساد غني كل الغنى بدلالاته ومضامينه وما صدقاته، سواء من حيث وضعه اللغوي أو وضعه الشرعي. لقد قيل في الفساد انه خروج الشيء عن حد الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الإنسان^(١). كما قيل فيه «الافساد فعل مابه الفساد. والهمزة للجعل، أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض.

(١) الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٣٧٩، البقاعي، مرجع سابق، ج١ ص ١١٠، الرازي، مرجع سابق، ج١ ص ٦٦.

مهمة إنشاء المدن ثم صيانتها من أهم واجبات الحكام . والمثير للإعجاب تأكيدهم جميعاً على أن تستوفي هذه المخططات العمرانية الشروط البيئية الجيدة مثل توفر المياه والطاقة والمراعي والهواء الطيب^(١) . وإذا كانت تلك المعايير مطلوب توفرها عند إقامة المدن فهي كذلك مطلوب توفرها بصفة مستمرة مع قيام المدن .

ولضمان القيام بذلك عملياً حمل الإسلام الأمة كلها مسؤولية المحافظة على البيئة فكما أن الحاكم مسؤول فإن كل فرد مسؤول ، نلمح ذلك بوضوح من امعان النظر في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ووحماية البيئة من أهم الأمور التي يجب الأمر بها ، والاعتداء عليها من المنكرات التي يجب منعها .

والملاحظ أن الإسلام حمل الجميع مسؤولية تغيير المنكر . الحاكم يغره بالقوة الفعلية ورجال الفكر والعلم والإعلام بالبيان والدعوة والتعريف ، والجماهير الغفيرة بالاحتقار والازدراء لكل من يعتدي على البيئة .

وهذا فإن المنكر لا يجد أرضية صلبة يعيش عليها ، كذلك نرى المسؤولية كاملة وتضامنية من خلال ما يعرف إسلامياً بفروض الكفاية ، وهي كل ما يحتاج إليه المجتمع ، ويدخل ضمن ذلك الحفاظ على البيئة حيث يحتاج المجتمع إلى نوعية بيئية جيدة ، والجميع مسؤول عن توفير ذلك ، وإذا لم يتحقق ذلك أثم المجتمع كله ، ثم ان التعامل مع

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧ ومابعداها .

الماوردي ، تسهيل النظر وتعجيل الظفر ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ص ١٥٨ ، ومابعداها ، ابن أبي الربيع ، سلوك المالك . . . «دار الأندلس» ، ص ١٩٠ ومابعداها .

﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾^(١). ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾^(٢).

٣/١ - الإفساد في الأرض والاعتداء على البيئة :

المصطلح الشائع في أدبيات البيئة هو الاعتداء على البيئة، لكن هذا المصطلح لم يشع في الإسلام بلفظه، وإنما شاع مصطلح الإفساد في الأرض، وهو مصطلح أقل شيوعاً حالياً، ومن ثم فإن معناه قد يكون غير واضح لدى البعض ولذا فإننا في حاجة إلى التعرف على مفهومه ومضمونه. ونرجي التعرف على ذلك إلى مابعد تدبر آية كريمة أخرى هي ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾^(٣)، هذه الآية الكريمة توضح أنه قد ظهر وشاع في كل من البر والبحر. أي في كافة جوانب البيئة الطبيعية وذلك من جراء سلوكيات الإنسان. وهذا يدل دلالة بينة على أن صلاحية البيئة غير مطلقة، وأنها قد تفسد فعلاً إذا كانت اعتداءات الإنسان عليها متكررة متزايدة. وهذا مانعايشه فعلاً. ماذا فهم المفسرون من ظهور «الفساد». يقول الامام البقاعي: «ظهر الفساد أي النقص في جميع ماينفع الخلق في البر بالقحط والخوف ونحوهما. والبحر بالغرق وقلة الفوائد من الصيد ونحوه من كل ماكان يحصل منه من قبل. بما

(١) سورة البقرة، الآية رقم : ٢٠٥.

(٢) سورة القصص. الآية رقم ٧٧.

(٣) سورة الروم. الآية رقم : ٤١.

لقد سبق أن أشرنا إلى بعض جوانب هذه المسألة، ونريد هنا ألا نكرر ماسبق قوله بل نشير إلى بعض الجوانب الأخرى، لقد تبين لنا من امعان النظر في أعمال جهاز الحسبة أن الكثير من العدوان على البيئة يأتي من خلال القيام بأعمال اقتصادية إنتاجية، أي بعبارة أخرى يأتي من أعمال التنمية، مثل نقايات الوحدات الاقتصادية، وكذلك ما تستخدمه من أدوات وآلات، إضافة إلى بعض المواد، وأيضاً الأسلوب الذي تسلكه في عملياتها. هنا وجدنا العلاج ليس بإيقاف تلك الوحدات عن العمل والانتاج والا تعطلت التنمية وتدهورت البيئة في النهاية معها، وإنما بمنع تلك الوحدات من ممارسة تلك الأعمال المضرة وتوجيهها إلى الأعمال المفيدة لكل من النمو والبيئة معاً، مثل تغيير نوعية المعدات أو الأساليب أو الموارد الخ.

كذلك نجد الوعي الكافي بإمكانية قيام تعارض بين كل من التنمية والبيئة، والتسليم بأنه في بعض الحالات يمكن أن يحدث شيء من ذلك، وهنا يوضح لنا الإسلام كيفية التصرف بما يحقق أكبر قدر ممكن من المصلحة، وذلك بمحاولة التوفيق كلما كان ذلك ممكناً، وباستخدام أساليب أو آلات ومواد غير مدمرة للبيئة طالما كان ذلك في الامكان، وإلا فليرتكب أخف الضررين في سبيل دفع أعظمهما، ولتقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، كذلك يجب اعمال قاعدة «درء المفساد مقدم على جلب المصالح» وكل ذلك يتطلب دراسات دقيقة لكل من الأعباء والعوائد. وإذا رجحت المضار منع التصرف، وإن كانت له عوائد أو منافع، والعكس صحيح.

وعموماً يمكن القول إن الإسلام تغلب على هذه المشكلة من

كل مقومات الصلاحية لسد حاجات الإنسان، يقول المفسرون في ذلك ان المقصود الإفادة بأن الأرض بكل ما فيها وما عليها خلقت على الوجه الملائم لمنافع الخلق ومصالح الناس. وبعضهم يرى ان اصلاح الأرض بإرسال الرسل وإنزال الكتب التي تهدي للخير والصلاح^(١). ومن الواضح ان المعنى الأول ينص أساساً على إصلاح البيئة الطبيعية بينما يتصرف المعنى الثاني إلى إصلاح البيئة الاجتماعية. وعندي ان النص صريح في المعنيين معاً، وان كلاهما معني ومقصود، فالأرض خلقها الله مستوفية كل خصائص الصلاحية لسد حاجة الإنسان كما انه تعالى قد تعهد خلقه بإرسال رسله على مر العصور من أجل إقامة بيئة اجتماعية سليمة وصحيحة. ولتدبر هذه الآيات الكريمة ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش﴾^(٢). ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً...﴾^(٣). ﴿فأما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾^(٤). فنجد صلاحية كل من البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية. و«ثانياً» قوله تعالى ﴿في الأرض﴾ نجد محل الإفساد المحظور هو الأرض وليس بقعة منها وليس عنصراً من عناصرها، وقد كان من الممكن ان يكون المحل هو الهواء أو الماء مثلاً أو غير ذلك لكن النص القرآني أعرض عن هذا كله وجاء بلفظة الأرض فإذا فهمنا الأرض هنا على ان

(١) أبوحيان، البحر المحيط، بيروت: دار الفكر، ج ٤ ص ٣١١، الرازي، التفسير الكبير، طهران: دار الكتب العلمية، ج ١٣ ص ١٣٣، ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية للنشر، ج ٨ ص ١٧٤.
(٢) سورة الأعراف. الآية: ١٠.
(٣) سورة الملك. الآية: ١٥.
(٤) سورة طه، الآيات: ١٢٣، ١٢٤.

يعامل الإسلام المفسد في الأرض معاملة المحارب ، وكفي بهذه عقوبة رادعة يقول تعالى : ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب شديد﴾ (١) .

والحد الأدنى للعقوبة الذي لا جدال حوله من الناحية الشرعية هو تحميل وتضمين المعتدي قيمة ما أفسده .

٩- الاهتمام الكبير بالتربية البيئية السليمة : يحرص الإسلام كل الحرص على أن يربي الفرد المسلم منذ نعومة أظافره على احترام ما حوله من بيئة حيوية وغير حيوية ، كذلك يربي فيه منذ الصغر البعد عن الإسراف والتبذير ويربي فيه النظرة المستقبلية البعيدة المدى فيما يتعلق بشؤون الدنيا «أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً» كما أنه يحرص على أن يتعلم الناس ذلك من خلال المدارس والجامعات وأجهزة الإعلام والثقافة ، لأن معرفة ذلك من العلم النافع الذي شدد الإسلام على معرفته (٢) .

١٠- النظرة الاقليمية - الإسلامية - لمشكلات البيئة والتنمية :
أحياناً ما ينشأ الاعتداء على البيئة نتيجة لضغط السكان واحتياجاتهم المتزايدة على موارد محدودة من البيئة ، كذلك قد نجد الاعتداء مصدره قلة الامكانيات المالية والبشرية ، وبالطبع فإن علاج كل تلك المشكلات

(١) سورة المائدة، الآية (٣٢) .

(٢) لمعرفة مفصلة عن دور التربية البيئية . راجع «ندوة الإنسان والبيئة- التربية البيئية» نظمها مكتب التربية العربي لدول الخليج في مسقط عام ١٩٨٨م ونشرت أعمالها بالرياض في ١٩٩٠م من قبل نفس المكتب .

٢/١- النظام البيئي (Ecosystem) :

مصطلح علمي يقصد به الكيان المركب من العناصر المكونة للبيئة ، والتي يقسمها علماء البيئة إلى عناصر انتاج مثل النبات ، وعناصر استهلاك مثل الحيوانات ، ويدخلون الإنسان في عناصر الاستهلاك هذه ، وعناصر التحلل مثل البكتيريا ، والعناصر الطبيعية غير الحية مثل الماء والهواء^(١).

ومن أهم خصائص هذا النظام التوازن الدقيق القائم بين عناصره بحيث لو طرأ تغيير ما في بعض جوانبه فإنه بعد فترة سرعان ما تجد ظروف طبيعية تزيل آثار هذا التغيير. كذلك من خصائص هذا النظام البيئي الاعتماد المتبادل بين عناصره ، حيث لا غنى لأي عنصر منها عن بقية العناصر. كذلك فإن من خصائصه القدرة على امتصاص الاعتداءات فلا ينهار بمجرد أي اعتداء عليه ، اللهم إلا إذا تزايدت واستفحلت ، عند ذلك يفقد هذا النظام البيئي قدرته على الصمود وتدهور وتسوء حالته . وتدهور البيئة تتدهور معها حياة الإنسان لعجزها عن إمداده بمتطلبات حياته وبقائه . وفي داخل هذا الإطار تطورت مصطلحات بيئية عديدة مثل «صحة البيئة» و«اجهاد البيئة» و«تدهور البيئة» بل و«مرض البيئة»^(٢).

وما هذه المصطلحات في مجملها إلا تعبير عن نوعية ووضعية الحالة البيئية ، فعندما لا تكون هناك اعتداءات من قبل الإنسان عليها فهي

(١) I. G. Simmons, The Ecology of Natural Resources, London: Edward Arnold Ltd., 1982, PP. 5-6.

(٢) د. محمد عوض الله ، الإنسان والثروات المعدنية ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة (٣٣) ص ٣١.

خاتمة:

من خلال هذا البحث المختصر للتنمية وعلاقتها بالبيئة من المنظور الوضعي والمنظور الإسلامي ، والذي قمنا فيه باستعراض لأهم عناصر هذه القضية من عوامل ، وآثار ، وطرق حماية ومحافظة ، يمكن الخلوصل إلى بعض النتائج التي من أهمها مايلي :

وقفت الثقافة الغربية ومازالت من البيئة موقف العداء والاستعلاء ومحاولة القهر والاعتصاب والسبب الرئيسي وراء هذا الموقف العدائي يرجع إلى عدم إيمان الغرب بالخالق إيماناً حقيقياً يجعلهم يوقنون بأن الكون مخلوق بحكمة وتقدير وسنن وضوابط وأهداف .

تجسدت تلك الثقافة بوضوح في السلوك الاقتصادي للحضارة الغربية ، هذا السلوك الذي قام على الكثرة والجري وراءها ومحاولة امتلاك واستهلاك أقصى مايمكن من سلع وخدمات ، وان ترتب على ذلك ماترتب من تخريب للبيئة ، وقد فهمت العلاقة بين التنمية والبيئة لديهم منذ بداية الجهود الإنمائية وحتى وقت قريب على أنها علاقة تعارض ومقابلة ، فأما هذه وأما تلك ، وبدافع هذه الثقافة الغربية تحيز الغرب للتنمية ، ولذلك وجدنا أن أهم عامل وراء تدهور البيئة كان النمو الاقتصادي بنمطه الغربي ، الرأسمالي والاشتراكي .

من الملاحظ أن العالم كله بدأ يهتم بالمسألة البيئية وبدأ يوليها اهتماماً متزايداً على كل المستويات . والتوجيه الجديد يقوم على عدة مرتكزات منها دحض المقولة التي كانت شائعة من قبل وهي تعارض

الجبال والسهول الوديان، ولفظة الماء، ولفظة الرياح، ولفظة الدواب، كل ذلك إن دل على شيء إنما يدل على عظم اهتمام الإسلام بالبيئة الطبيعية والقرآن الكريم إذ يعبر كثيراً عن البيئة بالأرض فهو بذلك ليس يبعد عن المصطلحات المعاصرة ألم نسمع عن «قمة الأرض» وعن أرض واحدة «Only one Earth»^(١)

قال تعالى : ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾^(٢) قيل معناه تضم الأحياء التي هي الإنسان والحيوانات والنبات، والأموات التي هي الجمادات من الأرض وغير ذلك . وكذا تضم الموتى في جوفها .

والآن نجد علماً خاصاً بالبيئة هو علم البيئة «Ecology» وقد عرفه اعلان مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة بأنه العلم بكل شيء يحيط بالإنسان^(٣) . ومعنى ذلك ان لفظة البيئة أصبح مصطلحاً علمياً يشمل على كل ما يحيط بالإنسان من عناصر طبيعية اجتماعية وأنظمة اقتصادية وسياسية وقيم وعقائد وعادات وتقاليد وأنماط ثقافية سائدة^(٤) . ومعنى شمول البيئة للجنوب المادية وغيرها مما يحيط بالإنسان، أن الاعتداء على أي جانب منها هو عدوان على البيئة، يستوي في ذلك الاعتداء على العناصر الطبيعية حيوية كانت أو غير حيوية من كائنات حية ونبات وجماد والاعتداء على العناصر الاجتماعية من قيم وأخلاق وأنظمة وأنماط اجتماعية وثقافية . ومع وضوح هذا البعد الاجتماعي في مفهوم البيئة إلا ان الذي جرى عليه العمل من

(١) . B.Warld & R Dulos, only one Earth, W.W.Norton, N.York: 19728 .

(٢) سورة المرسلات الآية ٢٥ . وانظر في معناها المفردات، مرجع سابق ص ٤٣٣ .

(٣) - (٤) د . زين الدين عبدالمقصود، البيئة والإنسان، بدون ذكر ناشر ١٩٨١ ص ٧، د .

محمد جمعة، تلوث البيئة، الرياض: مكتبة الخريجي، ص ١ .

البيئة الطبيعية هو حماية البيئة الإجتماعية . وقد تبين لنا أن الموقف
الوضعي يعتريه قصور شديد حيال هذا الجانب على ماله من خطورة
وأهمية لا تقل عن الجانب الآخر .



٦- طرق وأساليب حماية البيئة:

١ / ٦ - الفكر الوضعي وحماية البيئة .

٢ / ٦ - الفكر الإسلامي وحماية البيئة .

خاتمة .

مراجع البحث

«مرتبة حسب أسبقية ورودها في البحث»

- القرآن الكريم .
- ١- اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ، مستقبلنا المشترك ، عالم المعرفة (١٤٢) ١٩٨٩ م.
- ٢- د. عبدالهادي النجار، الإسلام الاقتصادي، عالم المعرفة (٦٣).
- ٣- محبوب الحق ، ستار الفقر، ترجمة أحمد فؤاد بليغ ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ م.
- ٤- اندرو ستير، تسخير البيئة لأغراض التنمية، مجلة التمويل والتنمية، صندوق النقد الدولي، يونيه ١٩٩٢ م.
- ٥- البنك الدولي، تقرير عن التنمية، ١٩٩٢ م.
- ٦- الراغب الأصفهاني، المفردات بيروت: دار المعرفة.
- ٧- الزبيدي، تاج العروس، الكويت.
- ٨- الجوهري، الصحاح. تحقيق أحمد عطار.
- ٩- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة. القاهرة: مكتبة الحلبي.
- ١٠- Ward B. & Dulos R. Only one Earth, W. W. Norton, N. York: 1972.
- ١١- د. زين الدين عبدالمقصود، البيئة والإنسان، بدون ذكر ناشر ١٩١٨ م.
- ١٢- د. محمد جمعة، تلوث البيئة، الرياض: مكتبة الخريجي.
- ١٣- Simmons I.G. The Ecology of Natural Resources

- المسيري ، عالم المعرفة (٩٧) .
- ٢٧- ميزاروفيك ، البشرية في مفترق الطرق ، ترجمة د. حسن عمر ، مكتبات عكاظ جدة .
- ٢٨- أريك فروم ، الإنسان بين المظهر والجوهر ، ترجمة سعيد زهران ، عالم المعرفة (١٤٠) .
- ٢٩- د. سعيد البوطي ، الحضارة الإنسانية في القرآن ، دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٢ م .
- ٣٠- ابن خلدون ، المقدمة ، المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة .
- ٣١- جي هولتن ولسون ، الاقتصاد الجزئي ، ترجمة د. كامل سلمان العافي ، الرياض دار المريخ .
- ٣٢- Moran & Others, Introduuction to Environmen-
tal Sciemnce N. York: W. H. Freeman & company,
1986.
- ٣٣- جاك لوب ، العالم الثالث وتحديات البقاء ، ترجمة أحمد فؤاد بليغ ، عالم المعرفة (١٠٤) .
- ٣٤- غوردن هيوز ، تنظيف البيئة في أوروبا الشرقية ، مجلة التمويل والتنمية ، سبتمبر ١٩٩٢ م .
- ٣٥- ابن حزم ، المحلى ، القاهرة : مكتبة الجمهورية .
- ٣٦- أبويوسف ، الخراج ، القاهرة : المكتبة السلفية .
- ٣٧- الشوكاني ، نيل الأوطار ، بيروت : دار الجبل .
- ٣٨- ابن الأزرقي ، بدائع السلك ، بغداد : سلسلة كتب التراث (٤٥) .
- ٣٩- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، القاهرة : دار الكتاب

وقد يبدو من أول وهلة ان موضوع «التنمية والبيئة» أشد التصاقاً بالدول المتقدمة منه بالدول النامية «المختلفة» من حيث ان الأولى قد انجزت التنمية التي كان من افرازاتها تلك المشكلات البيئية المتفجرة، لكنه عند التأمل وانعام النظر نجد الموضوع موضوع العالمين معاً، المتقدم والنامي . بل انه يمكن القول إنه موضوع العالم النامي بالدرجة الأولى، وذلك لأن المشكلات البيئية وان مثلت تهديداً لتنوعية الحياة وطبيعتها في الدول النامية فإنها تمثل تهديداً للحياة نفسها في العالم المتقدم^(١) وليس في ذلك غرابة فعلى الدول النامية ان تنجز التنمية، وبغير بيئة سليمة وموارد متوفرة من حيث الكيف لا يمكن لأية تنمية أن تقوم، ثم إن تلوث الهواء واستنزاف الموارد قد بلغ حداً غير مقبول على ساحة الدول النامية، يهدد بتفشي شتى الأمراض الفتاكة من سرطانية وغيرها .

ويكفي أن نعرف أن أكثر من مليار نسمة من سكان العالم النامي لا يستخدمون في طعامهم وشرابهم مياه نظيفة نقية، وان نحو ١,٧ ملياراً منهم لا يستفيدون من الصرف الصحي^(٢) .

ومما يؤسف له ان العالم الإسلامي المعاصر بكل دوله ودويلاته يعيش مشكلة التخلف الاقتصادي من جهة، ويسعى في سبيل تحقيق التنمية من جهة أخرى، وهو من ثم في قلب مشكلات البيئة، سواء من حيث ما هو عليه من تخلف، أو من حيث ما يستهدفه من تنمية وتقدم .

(١) محبوب الحق، ستار الفقر، ترجمة أحمد فؤاد بليغ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٣٤، اللجنة العالمية، مستقبلنا المشترك، عالم المعرفة (١٤٢) ص ١٨ ولزبد من المعرفة يراجع تقرير عن التنمية في العالم لعام ١٩٩٢، ص ١٢-٨٥ حيث يعرض بالإحصاءات والأشكال البيانية ماتعرض له الدول النامية من مضار ومخاطر بيئية جسيمة تتمثل في الأمراض المستعصية ثم الموت .

(٢) اندروستير، تسخير البيئة لأغراض التنمية، مجلة التمويل والتنمية، صندوق النقد الدولي، عدد يونيه ١٩٩٢، تقرير التنمية لعام ١٩٩٢ ص ٢٠٧ .

ment in The Tird world, N. York: Longman Inc.
1977.

- ٥٢- د. اسماعيل صبري عبدالله، نحو نظام اقتصادي عالمي جديد، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب.
- ٥٣- د. فؤاد مرسي، الرأسمالية تجدد نفسها، عالم المعرفة (١٤٧).
- ٥٤- دينيس غابور وامبرتو كولو، الخروج من عصر التبذير، ترجمة عيسى عصفور، دمشق: وزارة الثقافة.
- ٥٥- غورون هيوز، تنظيف البيئة في أوروبا الشرقية، مجلة التمويل والتنمية، سبتمبر ١٩٩٢ م.
- ٥٦- د. رمزي زكي، المشكلة السكانية، عالم المعرفة (٨٤).
- ٥٧- الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة. بيروت.
- ٥٨- الماوردي، قوانين الوزارة، مؤسسة شباب الجامعة. الاسكندرية.
- ٥٩- ابن تيمية، السياسة الشرعية، القاهرة: المطبعة السلفية.
- ٦٠- الدمشقي، الاشارة إلى محاسن التجارة، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٦١- د. عبدالسلام العبادي، الملكية في الشريعة الإسلامية، عمان: مكتبة الأقصى.
- ٦٢- يحيى بن آدم، الخراج، بيروت: دار المعرفة.
- ٦٣- ابن رشد، المقدمات، بيروت: دار صادر.
- ٦٤- الماوردي، الأحكام السلطانية، مكتبة الحلبي.
- ٦٥- أبو عبيد، الأموال، مكتبة الكليات الأزهرية.
- ٦٦- السرخسي، المبسوط، بيروت: دار المعرفة.

المصرية .

٨٠- الشافعي ، الأم ، دار المعرفة .

٨١- الجصاص ، أحكام القرآن ، دار الكتاب العربي .

٨٢- ابن العربي ، أحكام القرآن ، مكتبة الحلبي .

٨٣- البهوتي ، شرح منتهى الارادات ، مطبعة أنصار السنة

المحمدية .

٨٤- البهي الخولي ، الثروة في ظل الإسلام ، الناشر العرب .

٨٥- الغزالي ، شفاء الغليل ، بغداد ، مطبعة الارشاد .

٨٦- البنك الدولي ، تقرير التنمية ، ١٩٨٨ م .

